موسوعة المدينة التاريخية

٣

الحركة العلمية

في عصر الرسول وخلفائه

دكتور
محمد السيد الوكيل

دار المجتمع
للنشر والتوزيع
السعودية - جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة المدينة التاريخية

٣

الحركة العلمية

في عصر الرسول وخلفائه

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

دار المجتمع للنشر والتوزيع

جدة: ميدان الجامعة ص. ب. ٨٠٥٢ جدة ٢١٤٨٢ - ت. ٦٨٩١٤١٧
لخبر: ش الأمير نايف ص. ب. ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ - ت. ٨٩٤١١٣٦

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وأما بعد.

فبمزيد من الاعتزاز والفخر أقدم للقراء الأفاضل الجزء الثالث من موسوعة المدينة المنوّرة التاريخية، وفي هذا الجزء أتناول الحركة العلمية

أولاً: في عصر الرسول ﷺ.

وثانياً: في عصر الخلفاء الراشدين المهديين - رضي الله عنهم أجمعين - وفي كلا العصرين أبين النهضة الثقافية والفكرية التي أحدثها الإسلام بين أفراد هذه الأمة الأمية، وكيف أخذ بأيديهم ليكونوا رواداً للحركة العلمية العالمية التي غيرت المفاهيم البالية، وأرست للعلم قواعد لا تختلف مع العقل البشري ولا تتنافى مع التشريع الإلهي.

وقد أوضحت أن الإسلام قد وضع نظاماً للتعليم، وحدد العطلة الأسبوعية للمتعلمين وأن طرق التدريس التي نستعملها اليوم ليست وليدة الفكر المعاصر، وإنما هي قديمة وذات جذور عميقة، وضع الرسول ﷺ أساسها وهو يعلم أصحابه.

ولم يكن منهج التعليم في الإسلام منهجاً عشوائياً، ولكنه كان منهجاً مرحلياً مخططاً، ولم يغفل الإسلام حق المرأة في التعلم، بل أعطاها حظها

منه كاملاً غير منقوص، والإسلام قد أحل المدرس المكانة اللائقة به، وألزم الطلاب بآداب يجب أن يلتزموها مع معلميهم.

وقد اتسعت تلك الحركة في عصر الخلفاء ففتحت الكتاتيب، ودرست فيها العلوم الدينية وعلوم العربية إلى جانب حفظ القرآن الكريم، وعرفت إلى جانب ذلك كله علوم نبغ فيها المسلمون كعلوم الأنساب والحساب والفرائض، والعلوم العسكرية، والعلوم الإنسانية كالجغرافيا والتاريخ، وكذلك كانت لهم معرفة بعلوم الطب والعقاقير الطبية.

وفي هذا الجزء كذلك أتناول الفتنة العمياء التي أشعل نارها أناس ليسوا من الإسلام في شيء محاولاً تحليل شخصيات المتمردين، وموضحاً الأسباب الحقيقية لتلك الفتنة الهوجاء مناقشاً بعض مشاهير الكتاب في آرائهم التي لم تبن على أسس علمية صحيحة، لإظهار وجه الحق فيما تعرضوا له.

وأختم هذا الجزء ببيان نتيجة هذا التحول عن المدينة ونقل الخلافة إلى الكوفة ثم إلى دمشق وأثر ذلك سياسياً واقتصادياً في المدينة المنوّرة.

إن الإسلام وهو يعالج مشكلة التعليم ليبني خطته على أسس علمية يندهش لها كل من يقف عليها، لأننا سنلاحظ ونحن نقرأ هذا الجزء بتمعن ودقة أن كل ما يدّعي علماء التربية المحدثون أنه ابتكار وإبداع لم يعرفه العالم من قبل إنما هو ادعاء غير صحيح.

لقد عرف المسلمون في هذا العصر الذي نتناوله، طرق التدريس قبل أن يولد علماء التربية، عرفوا الطريقة الاستقرائية، والطريقة الحوارية، وطريقة الإلغاء؛ كما وضعوا المناهج المناسبة لكل المستويات الفكرية.

وأما عن الفتنة وأصولها وجذورها فقد تناولتها بطريقة حيادية صرف حتى يمكن الوصول إلى الحقائق دون أن تتوتر الأعصاب أو تتورط الألسنة، ووصلت فيها إلى نتائج أرجو أن أكون قد وفقت في نسبة الأحداث إلى أصولها، وسأزيد بعض الشبه توضيحاً في كتابي [جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين].

هذا وأسأل الله ـ عز وجل ـ أن يفيد به قارئه وأن يجعل ثوابه في ميزان حسناتي إنه على كل شيء قدير.

دكتور
محمد السيد الوكيل

المدينة المنوّرة في يوم السبت ١٠ من شهر صفر الخير سنة ١٤٠٥ هـ.
٣/ ١١ / ١٩٨٤ م.

الفصل الأوّل

الحركة العلميّة في عصر الرّسول

صلّى الله عليه وسلّم

الحركة العلمية في عصر الرسول
صلى الله عليه وسلم

الإسلام والعلم:

لم يعرف دين رَفَعَ قدر العلم، واهتم بالتعليم، واحترم العلماء مثل الإسلام، فالقرآن الكريم يرفع العلماء أعلى الدرجات، يقول - تعالى -: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات ﴾[1]، ويجعل - سبحانه - العلم هو الميزة التي يفضل بها بعض الناس على بعض. قال - تعالى -: ﴿ إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾[2]، وفضل رسله على سائر خلقه بالحكمة والعلم ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾[3]، ويقول في موسى - عليه السلام -: ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾[4]، ويقول في العبد الصالح: ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علماً ﴾[5]، وهكذا يقول في لوط وداود وسليمان.

ولما رفع الإسلام قدر العلماء، وجعل العلم ميزاناً يزن به الرجال فيرفع به أقواماً ويخفض بفقده آخرين، حتم على المسلمين طلب العلم، وافترضه

---

(١) المجادلة: ١١.
(٢) البقرة: ٢٤٧.
(٣) يوسف: ٢٢.
(٤) القصص: ١٤.
(٥) الكهف: ٦٥.

عليهم فريضة ماضية إلى يوم القيامة بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

وحث الله ـ عز وجل ـ نبيه على طلب الزيادة من العلم ليكون قدوة لنا، فلا يمل أحد من طلبه، ولا يعتقد أحد أنه حصل منه ما يكفيه فلا يستزيد منه ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[2].

ولهذا جعل رسول الله ـ ﷺ ـ مداد العلماء يفوق دماء الشهداء يوم القيامة فقال: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء»[3].

وإن مما يبين قيمة العلم في نظر الإسلام، نزول أول آيات من القرآن الكريم تطالب الرسول بالقراءة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[4].

ففي هذه الآيات تتكرر كلمة اقرأ مرتين، وكلمة علم مرتين، وذكرت القلم الذي هو آلة الكتابة، وهكذا تشمل الآيات كل وسائل تحصيل العلم من القراءة والكتابة وهي فوق ذلك تصرح بلفظ العلم.

وإن الباحث ليدهشه هذا الاهتمام بالعلم وتحصيله، لقد كان المنتظر أن تتناول الآيات الأولى من الكتاب الذي أنزل لتصحيح العقيدة، ومحاربة الوثنية، وإقامة مجتمع مسلم لله ـ عز وجل ـ على أساس التوحيد الخالص له، كان المنتظر أن تكون الآيات الأولى دعوة صريحة إلى التوحيد، ومحاربة علنية للوثنية، وتدعيماً لقواعد المجتمع المسلم.

ولكن الآيات لم تصرح بشيء من ذلك، نعم إنها ذكرت توحيد الربوبية ولكن هذا القسم من التوحيد ليس هو الذي من أجله بعث رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وابن ماجة.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) القرطبي ورمز له السيوطي بالضعف (١/٣١).
(٤) سورة العلق: ١ ـ ٥.

حيث كان المشركون يعترفون به ولم يجحدوه.

وإنني أعتقد أن الآيات المباركات أنزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ بهذا الأسلوب لتدل على أمرين هامين:

الأول:

لبيان أن العقيدة الصحيحة لا تحصل بالتقليد والأخذ عن الغير، وإنما تحصل بالأدلة العلمية القاطعة التي غالباً ما تكون عن طريق التعلم الحاصل بوسائله المعلومة والتي أشهرها القراءة والكتابة.

الثاني:

لبيان أن القراءة والكتابة وتحصيل العلم من الأمور المهمة في الإسلام فينبغي تحصيلها والعمل على اتقانها، وإذا علمنا ذلك فإننا لا نستغرب حين نعلم أن السورة التي تلت هذه الآيات في النزول هي سورة القلم التي مطلعها: ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ ثم القلم ثم المزمل ثم المدثر[1].

وهكذا نرى أن سورة ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ نزلت تؤكد المعنى الذي سبق ذكره في السورة التي قبلها ـ سورة العلق ـ فالله ـ عز وجل ـ يقسم بالقلم وما يسطره الكاتبون به لما فيه من كثرة الفوائد للإنسان، فيه تدون العلوم، وبه تكتب العقود، وبه تحدد آجال الديون، وبه تسطر العهود، وبه تضبط الشروط، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي لا تحقق إلا بواسطة القلم.

ولم يقتصر الإسلام على الدعوة إلى التعليم بواسطة القرآن الكريم والسنّة النبوية، بل اتخذ الرسول ـ ﷺ ـ خطوات عملية لتحقيق تلك الغاية،

---

(١) فتح القدير (٥/٢٦٦).

فجعل فداء أسرى بدر الذين يحسنون الكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين[1] وأمر سعيد بن العاص أن يعلم المسلمين القراءة والكتابة وكان كما ذكر ابن عبد البر كاتباً محسناً[2]، وكان يساهم في تعليم المسلمين عبادة بن الصامت[3].

وهكذا انتشرت الكتابة بين المسلمين حتى أصبح عدد كتابه ـ ﷺ ـ اثنين وأربعين كاتباً[4] وقد وضحت ذلك كله في فصل سابق عند الكلام على النهضة العلمية.

أول مدرسة في الإسلام

يعتبر المسجد أول مدرسة في الإسلام، فلم تكن مهمته مقصورة على العبادات فقط، بل كانت أوسع من ذلك كما بينت عند الكلام على بناء المسجد، وكان من أعظم مهماته كونه مدرسة يعلم الرسول ـ ﷺ ـ فيها أصحابه.

عن صفوان بن عسّال المرادي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ـ ﷺ ـ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: «مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟» قال: قلت: يا رسول الله، لا أزال أسافر بين مكة والمدينة، فافتني عن المسح على الخفين[5].

وذكر ابن حجر عن سمرة قال: (إن النبي ـ ﷺ ـ دخل المسجد يوماً فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فليحدث بها»، فلم يحدث أحد بشيء فقال:

---

(١) الروض الأنف (٥/٢٤٥).
(٢) الاستيعاب (٢/٣٦٩).
(٣) أبو داود (٢/٩٤ ـ ٩٥).
(٤) التراتيب الإدارية (١/٤٩).
(٥) الترغيب والترهيب (١/٤٢)، جامع بيان العلم (١/٣٢).

«إني رأيت رؤيا فاسمعوا مني»[1].

هكذا كان ـ ﷺ ـ يجلس في المسجد، فيعلم الجاهل، ويفتي السائل، ويعبر الرؤيا ويبين الأحكام، كما ورد في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد[2]، ويعلمهم ما يجب عليهم نحو نظافة المسجد، وذلك عندما رأى نخامة في القبلة[3].

وبذلك يصبح المسجد مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها كل ما ينفعهم من أمور دينهم ومصالح دنياهم ولعل السر في ذلك أن ترتبط حياة المسلم بالمسجد، فيصبح معبده الذي يتبتل فيه، ومدرسته التي يتعلم فيها، وناديه الذي يلقى فيه إخوانه.

وعندما ترتبط حياة المسلم بالمسجد، يتعلق به قلبه، وتزكو فيه روحه، ويجد في رحابه أنس نفسه، وهناك تكون خلوته بربه، وراحته بقربه، فيكون الرجل ربانياً يسخر دنياه لخدمة آخرته، وتسمو الحياة في نظره لأنها وسيلة للوصول إلى بغيته.

وقد عرفت أدوات الكتابة في عهد الرسول ـ ﷺ ـ كالقلم والدواة ـ المحبرة ـ وأما الألواح فكانوا يكتبون على الخرق والأكتاف والحجارة وسعف النخل.

روى عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنه كان بين يدي النبي ـ ﷺ ـ فقال له: «ألق الدواة، وحرف القلم، وأقم الباء، وجر السين، ولا تعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمان، وجرد الرحيم» وقد علق صاحب التراتيب على الحديث بقوله: وهذا وإن لم تصح الرواية أنه ـ عليه السلام ـ كتب، فلا يبعد أن يرزق علم هذا، ويمنع الكتابة والقراءة[4].

---

(١) فتح الباري (١٢/٤٤٠).
(٢) البخاري (١/٣٢٣).
(٣) البخاري (٣/٨٤).
(٤) التراتيب الإدارية (١/١٢٧).

ولا شك في أنه ـ ﷺ ـ كان له كتاب يكتبون له الوحي والكتب الخاصة، والمعاهدات والصلح وغير ذلك، وأن هؤلاء الكتاب كانوا يكتبون بالقلم وبالحبر.

سن بـدء التعليم

كان السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ يعلمون أولادهم في سن مبكرة ورويت في ذلك روايات تخرج في كثير من الأحيان عن حدود العقل البشري كما روى القسطلاني أن سفيان بن عيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكما في فواتح الرحمات من أن الشافعي حفظ الموطأ وهو ابن خمس سنين[1].

قد يكون المراد أنه حفظ شيئاً من القرآن لا كل القرآن، وعلى كل حال فإن هذه روايات لا يمكن إثباتها بطريق تطمئن له نفس المحقق.

والذي روى عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه كره أن يعجل بتعليم الأطفال واستنكر أمر الطفل الذي جمع القرآن وهو ابن سبع سنين، وقد علق الكتاني على ذلك بقوله: (إن في أعجال الصبى منعاً من الذي ينبغي أم يفسح له فيه من اللهو المقيم لبنية الأطفال المروح لنفوسهم)[2].

وذكر ابن الحاج في المدخل أن السلف إنما كانوا يقرِّئون أولادهم إذا بلغوا سبع سنين قال: وكثير من الناس يقرئون أولادهم في حالة الصِغَر ـ أي قبل سن السابعة ـ وذلك تعب بلا فائدة.

وابتداء التعليم بعد سبع سنين أو في بداية السابعة هو المشهور عند علماء المسلمين أخذاً من حديث الرسول ـ ﷺ ـ «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»[3].

---

(١) نفسه (٢/٢٩٧).
(٢) نفسه (٢/٢٩٦).
(٣) رواه أحمد في المستند.

ومعلوم أن الأمر المقصود في الحديث هو تعليمهم الصلاة حتى يمكنهم أداؤها على النحو المطلوب شرعاً، وهذا يدل على أن الصبي متى بلغ سن السابعة أمكنه أن يتلقى التعليم عن غيره بدون مشقة.

ويدل الحديث على أن التعليم في هذه الفترة يكون بالتوجيه والإرشاد والرِفق، فإذا بلغ العاشرة، ولم يذعن للتعليم، ولم يستجب للموجهين، وجب استعمال شيء من الشدة حتى يرتدع وينزجر، ويسلك الطريق الصحيح.

والمشاهد في هذه الأيام أن الطفل إذا بُدىء في تعليمه قبل هذه السن يتعثر ويصعب عليه مواصلة التعليم إلا بمشقة قد تؤدي في النهاية إلى ترك التعليم، ولهذا فإن خبراء التربية لم يسمحوا للطفل بمزاولة التعليم في المرحلة الابتدائية قبل أن يتم السادسة من عمره بمعنى أنه يكون قد بدأ في السابعة أو كاد يبدأ فيها.

والحديث يقرر قاعدة الثواب والعقاب في التعليم، وهي قاعدة حاول علماء التربية المحدثين تنكبها حين قرروا عدم العقاب زاعمين أنه يؤدي إلى عقد نفسية تنفر من التعليم، وتظهر المعلم في صورة وحشية لا تمكن التلميذ من التلقي عنه.

ونحن نقول: إن هذا الكلام يكون صحيحاً إذا كان العقاب يخرج عن طاقة التلميذ ويقوم به المدرس في صورة رهيبة، كأنه ينتقم لنفسه من التلميذ المقصر.

أما إذا كانت العقوبة بالشكل الذي حدده الإسلام بحيث يكون الضرب غير مؤذٍ ولا مبرح، فإنها لا تؤدي إلى هذه العقد، ولا تكون رهيبة منفرة بل تؤدي الغرض، وتشعر التلميذ بالتقصير فيقوم بعلاجه، كما يحس بحرص المدرس على مصلحته فيزداد حبه له، وتتوثق العلاقات بينهما.

ونحن نشاهد نتائج قرار المحدثين من المربين بعدم أخذ التلميذ بشيء من العقاب، ونلمس آثاره في بيوتنا ومدارسنا، وشوارعنا ومحافلنا، ونرى

العواقب الوخيمة التي ترتبت عليه من استخفاف التلميذ بمدرسته ومدرسه، وإهماله في دورسه وواجباته وعدم التزامه بأبسط الواجبات من الآداب مع غيره من زملائه، وقد تعدى الأمر ذلك إلى الوالدين ومن يقوم مقامهما، حتى أصبحت المدارس أكثر الأماكن أمنا للتلميذ، يخالف في داخلها النظم من غير رادع، ويتعدى على حقوق غيره وهو مطمئن.

ورغم هذا الفشل الذريع الذي منيت به هذه النظرية، ورغم اعتراف الجميع من المدرسين والإداريين وأولياء الأمور والعقلاء من التلاميذ يعجز هذه النظرية عن تقديم وسائل ناجحة للتربية، فإنهم مصرون على التمسك بها وكأنهم لا يقصدون من ذلك إلا مخالفة القاعدة التي قررها الحديث الشريف.

على أن قاعدة الثواب والعقاب مقررة وقائمة رغم أنف العاملين على إلغائها، وهم بأنفسهم يمارسون تنفيذها، بل ويحرصون على تطبيقها، ذلك لأنهم يقدمون للمحسن الجيد القائم بواجبه شيئاً من الهدايا تشجيعاً له، ولا يستطيعون تقديم مثل هذه الهدايا للمسيء المقصر، وحرمان المقصر من الهدايا من العقوبات التي لها أثر نفسي وحسّي سيء لا يقل مرارة في نفس التلميذ عن الضرب المبرح.

وأصحاب هذه النظرية لا يستطيعون الخروج من هذا المأزق إلا بأحد حلين، وكلاهما بين جنبيه العقوبة والجحود، لأنهم إما أن يعطوا الجوائز والهدايا للطلاب على حد سواء، أو يمنعوا الجميع على حد سواء، وفي كلا الحالين قتل للتنافس بين الطلاب، وجحود لعبقرية المتفوقين منهم، وليس وراء ذلك عقوبة، إلا أن العقوبة في الحالين المذكورين تنصب على رأس المتفوقين دون غيرهم.

ومن هذه المناقشة السريعة لموضوع الثواب والعقاب في التربية نشعر بتفوق الإسلام في أساليبه التربوية، ونتأكد أن القرآن الكريم لم يضع هذه القاعدة عبثاً، وأن الرسول العظيم لم يقررها اعتباطاً، وإنما كانت مبنيَّة على أسس عقلية، وقواعد فطرية، بحيث يترتب على تعطيلها كف القوى العقلية

عن الابتكار والإيداع، حيث لا يقبل العقل مطلقاً أن يتساوى المحسن والمسيء والمجد والمهمل، وتعطيل للفطرة السوية عن التطلع إلى المعالي والمجد حيث يسخر الكسالى من الدائبين، وتفتر همم النابغين المخلصين.

وخلاصة القول؛ أن الإسلام حدد سن بدء التعليم بسبع سنين، وقد وافق علماء التربية على تلك القاعدة، وكذلك قرر الإسلام قاعدة إثابة المجدّين المتفوقين، وعقوبة المهملين المقصرين، ويصر على ممارستها مهما خالفها المخالفون.

نظام التعليم

وقد وضع الإسلام أسساً تربوية راعى فيها مصلحة المعلم والمتعلم، وتحرى أن تقوم تلك الأسس على قواعد نفسية وصحية وعقلية حتى تحقق الفائدة المرجوة، ولا شك أن مراعاة هذه الجوانب في التربية من أهم وسائل نجاح العملية التربوية، إذ لو اصطدمت التربية مع الجانب النفسي نشأت عنها العقد المعوقة للنمو، ولو تعارضت مع القوانين الصحية لما استطاع الإنسان مواصلة الدراسة، ولو لم يراعِ الجانب العقلي لعجز المتعلم عن تحصيل ما يطلب منه تحصيله.

ولهذا وضع الإسلام هذه الأسس مراعياً تلك الجوانب المختلفة في الدارس ومن هذه الأسس ما يأتي:

١ ـ العطلة الأسبوعية:

لا شك في أن النفوس تسأم، والعقول تمل، ومواصلة الدراسة بلا انقطاع أكبر عامل يؤدي إلى السآمة والملل، لهذا لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يعلم أصحابه طول أيام الأسبوع بل كان يعلمهم أياماً، ويمسك أياماً، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[1].

---

(١) البخاري (١/١٦٢).

ويعلق الحافظ ابن حجر على الحديث فيقول: المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوماً بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، وإما يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط للحاجة مع مراعاة وجود النشاط[1].

٢ ـ منهج مرحلي:

كان ـ ﷺ ـ يقدر الأمور، ويضع كل شيء في موضعه المناسب، وكان في تبليغ الرسالة ينهج مع من يبلغهم هذا النهج بتوجيه من الله ـ عز وجل ـ فكان يراعي عقول الناس، ويعطي كل شخص ما يصلحه من العلم، ووضع ـ ﷺ ـ القواعد العامة لذلك حتى يتبعه المسلمون في تعليم الناس.

فالرسول يعلم معاذ بن جبل حكماً عاماً، ويستأذن معاذ في تعليمه للناس فيمنعه الرسول، ويبين له علة المنع حتى لا يعتقد معاذ أن ذلك أمراً خاصاً به خصه به رسول الله ـ ﷺ ـ.

عن أنس بن مالك أن النبي ـ ﷺ ـ، ومعاذ رديفه على الرحل ـ قال: «يا معاذ بن جبل» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) قال: «ما من أحد يشهد أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا»، وأخبر به معاذ عند موته تأثماً[2].

وهكذا نرى أنه آثر معاذاً بشيء من العلم لم يعطه لغيره، بل ولم يسمح بتبليغه لغيره لقد خاف ـ ﷺ ـ أن يضر ذلك العلم العامة من الناس فحجبه عنهم لأن مستواهم العقلي لم يصل بعد إلى تحمل مثل هذا العلم الذي يحتاج إلى همة عالية، وفهم عميق لجوانبه ومراميه، وعلمه معاذاً لأنه أنس منه ذلك الفقه وهذا الإيمان الذي لا يقعد به عن العمل به يدفعه إلى

---

(١) فتح الباري (١/١٦٣).
(٢) البخاري (١/٢٢٦).

المواصلة رجاء الاستزادة من فضل الله.

ويقول ـ ﷺ ـ في حديث آخر لعائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهـد بكفر، لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس وباب يخرجون»[1].

والرسول ـ ﷺ ـ في هذا الحديث يراعي ظروف الناس وأحوالهم، فلا يدخل عليهم ما يقلقهم أو يشككهم أو يحدث في نفوسهم أثراً سيئاً، ولهذا ترك بناء الكعبة على النحو الذي يريد مخافة أن يدخل في نفوس المسلمين شيء يوقعهم في أمر خطير.

ولهذا ترجم البخاري ـ رحمه الله ـ للباب بقوله: ترك بعض الاختيار ـ أي فعل الشيء المختار ـ مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه.

ويقول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟)[2].

نفهم من هذا أن النبي ـ ﷺ ـ قد قعد للتعليم قاعدة هامة تنحصر في أن المعلم يجب أن يراعي أحوال المتعلمين، ومقدار فهمهم، ويتصرف معهم على النحو الذي يصلحهم، ويعطيهم من العلم ما تطيقه عقولهم.

ومعنى هذا أن تكون مناهج التعليم مشتملة على أمرين هامين:

الأول: تحقيق المصلحة للمتعلم.

والثاني: أن تكون مناسبة للمستوى العقلي له.

والمتبادر إلى الذهن من اشتمال المناهج على هذين الأمرين أن تكون المناهج مرحلية، أي متدرجة تنقل المتعلم من مرحلة إلى مرحلة أرقى منها.

وأما محتوى المنهج فقد تركه الإسلام، ولم ينص عليه، لأنه يختلف

---

(١) نفسه ص: ٢٢٤.

(٢) نفسه ص: ٢٢٥.

باختلاف البيئة والأحوال التي يعيش فيها المتعلمون، كما يختلف بالنسبة لنوع الطالب من حيث الذكورة والأنوثة، مع مراعاة أن هذه الاختلافات مهما عظمت يجب ألا تخرج عن حدود الإطار العام للمنهج من حيث تحقيق المصلحة، ومناسبتها للمستوى العقلي للطلاب.

٣ ـ طرق التدريس:

اتبع رسول الله ـ ﷺ ـ في تعليم أصحابه أساليب سماها المحدثون من علماء التربية طرق التدريس، وأهم هذه الطرق ثلاثة:

الأولى: الطريقة الإلقائية.
الثانية: الطريقة الاستنباطية.
الثالثة: الطريقة الحوارية.

وكان ـ ﷺ ـ يعلم أصحابه بالطريقة التي يراها مناسبة للمادة التي يدرسها لهم، أو بالطريقة التي كان يرى فيها بعثاً لنشاطهم، وحفزاً لهِمَمِهم، وقد علم ـ ﷺ ـ بالطرق الثلاثة حسبما كان يقتضيه موضوع الدرس.

درس بالطريقة الإلقائية في الأمور الغيبية، وعند تعليمهم أموراً لم يسبق لهم معرفة بها، وعند الوعظ والإرشاد.

والطريقة الإلقائية في هذه الدروس هي أنجح الطرق، وبخاصة وأنه كان يعلِّم كباراً عندهم من الوعي وقوة الإدراك ما يمكنهم من الاستيعاب، كما كان عندهم من سيلان الذهن ما يمكِّنهم من الحفظ لما يسمعون، ولذلك فإن هذه الطريقة هي المستعملة في المرحلة الجامعية في عصرنا الحاضر.

وأما الطريقة الاستنباطية، فكان يستعملها الرسول إذا كان هناك قرائن تدل على المسؤول عنه، فإنه حينئذٍ يسأل والقرينة قائمة تدل على الإجابة، ويستنبط ما عندهم من العلم في المسألة فإذا عجزوا عن الإجابة الصحيحة ألقاها عليهم ـ ﷺ ـ ومن ذلك ما روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟» قال:

فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»[1].

وروى البزار من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ «ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء» فقال: أتدرون ما هي؟ قال ابن عمر: لم يخف عليَّ أنها النخلة، فمنعني أن أتكلم مكان سني، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هي النخلة»[2].

إن طرح الأسئلة بهذه الطريقة على الحاضرين لا يقصد منه إلا استخراج ما عندهم من العلم ووصف الشجرة بأنها لا يسقط ورقها فيه تقريب الإجابة إلى الأذهان، وقد ثبت في بعض الرويات عن مجاهد عن ابن عمر قال: كنا عند النبي فأتى بجمار فقال: (إن من الشجر شجرة... الحديث)[3].

وهذه الرواية صريحة في أن الرسول ـ ﷺ ـ طرح عليهم السؤال عندما أتى بالجمار وهو شحم النخلة، فالسؤال والحالة هذه يوحي بالإجابة من غير مشقة، ولم تخف الإجابة على ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ولكنه منعه الحياء من الإجابة لأنه كان أصغر الحاضرين سناً.

ولما سكت القوم، ولم يجيبوا، أجاب الرسول، وبين لهم أنها النخلة، وهذه الطريقة في التدريس تشحذ أذهان الطلاب، وتحرك قرائحهم للبحث، وإذا تعلم الإنسان المسألة بعد بحث وتأمُّل فإنها تثبت في ذهنه، وقلما ينساها، ولهذا يقول ابن حجر: فيه التحريض على الفهم في العلم ويعلق على الحديث فيقول: ينبغي للمُلْغَز لَهُ أن يتفطن لقرائن الأحوال الواقعة عند السؤال، كما ينبغي للملْغِز أن لا يبالغ في التعمية بحيث لا يجعل للملغز له باباً يدخل منه، بل كلما قربه كان أوقع في نفس سامعه[4].

---

(١) البخاري (١/١٤٧).
(٢) فتح الباري (١/١٤٦).
(٣) البخاري (١/١٦٥).
(٤) فتح الباري (١/١٤٦).

وقد استعمل الرسول ـ ﷺ ـ هذه الطريقة في تعليم أصحابه أشياءً هامة فيلفت نظرهم بالسؤال ويثير انتباههم للموضوع، وينتظر منهم الإجابة فإن أجابوا، وإلا فإنه يجيب الإجابة الصحيحة، وقد رأينا أنهم في الحديث السابق قد ذكروا أسماء أشجار البادية، ولما لم تكن الإجابة هي المطلوبة أجابهم بالجواب الصحيح، وسنذكر هنا نماذج من الأسئلة التي وجهها رسول الله لأصحابه.

١ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت ردف النبي ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟».

قال قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم سار ساعة، ثم قال: «معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: «هل تدري ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «ألا يعذبهم»[1].

٢ ـ عن زيد بن خالد الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل علي الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[2].

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أتدرون ما المفلس؟».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

٤ ـ عن فاطمة بنت قيس قالت: سمعت نداء المنادي ينادي الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ـ ﷺ ـ فكنت في صف النساء الذي يلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل منكم مصلاه» ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فأخبرهم عن قصة تميم الداري مع المسيح الدجّال[2].

٥ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئتي، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئتي، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذلك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، إصبحي طالعة من مغربك تحت العرش، فتصبح طالعة من مغربها».

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتدرون متى ذاكم؟» ذاك حين «لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»[1].

---

(١)، (٢)، (٣) الأحاديث الخمسة المذكورة كلها من صحيح مسلم والآية التي بين القوسين من سورة الأنعام: ١٥٨.

نلاحظ من استعراض تلك النماذج أنها تتناول موضوعات مختلفة، فمنها دروس في العقيدة، ومنها تنبيه إلى خطورة الجانب الاجتماعي والأخلاقي ومنها تذكير بنهاية الحياة وفنائها.

ونلاحظ كذلك أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حاولوا الإجابة عن بعض الأسئلة ولكنهم لم يوفقوا في الإجابة، وسكتوا عن بعضها مفوضين علمها إلى الله ورسوله، وفي كلا الحالين نرى أن الرسول كان يجيب الإجابة الصحيحة.

وبهذا يكون الرسول ـ ﷺ ـ قد وضع نماذج حية للتدريس بالطريقة الاستنباطية، ونعلم من هذا أن الطريقة ليست من ابتكار علماء التربية، ولكنهم أدخلوا عليها بعض التحسينات بما يتناسب مع البيئة والظروف التي يدرس فيها المدرس كوسيلة الإيضاح، وسرد بعض القصص الموحية بموضوع الدرس قبل البدء فيه.

ولم تكن الطريقة الحوارية غير معروفة في عهد الرسول، بل كانت معلومة واستعملها ـ ﷺ ـ في تعليم المسلمين، وعلماء التربية يقصدون بالطريقة الحوارية تبادل الأسئلة والأجوبة من الطالب والمعلم، أو من الدارس والمدرس، وهي بهذا المعنى معروفة في دروس الرسول لأصحابه كما سنبينه فيما بعد.

والطريقة الحوارية جيدة في التذكير بالمعلومات، والإيحاء بالإجابة، وفي نفس الوقت تضفي على الجو الدراسي روحاً من الحيوية والنشاط، وتشعر الطالب بالجهد الإيجابي الذي يبذله أثناء الدرس، وتحبِّبه في المدرسة، فيتعلق قلبه بها.

وكثيراً ما كان رسول الله يدير حلقة العلم بهذا الأسلوب، فكان يجلس لأصحابه يتلقى منهم الأسئلة ويجيب عنها، وتارة يلقي عليهم الإجابة في صورة أسئلة يطرحها عليهم، أو يوجه الأسئلة لتتحفز أذهانهم للإجابة، فإذا تهيأت لذلك ألقى عليهم الإجابة فتظل مستقرة في عقولهم.

١ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال؟ كان النبي ـ ﷺ ـ إذا صلى الفجر انحرفنا إليه، فمنا من يسأله عن القرآن، ومنا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرؤيا [١].

٢ ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان مما يقول لأصحابه: «من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له»[٢].

٣ ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع» قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»[٣].

٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٤].

٥ ـ عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم»، فقلت له: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر»، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر، قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «نعم، هم قوم من جلدتنا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: يا رسول الله، ما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، فقلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

والحديث الأول من هذه المجموعة فيه أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هم الذين كانوا يبدأون بالأسئلة يوجهونها لرسول الله ـ ﷺ ـ وهو يجيبهم.

وفي الثاني ترى أنه هو الذي كان يبدؤهم بالسؤال، ويطلب منهم أن يسألوه ليجيب عن أسئلتهم ويعبر لهم ما رأوا من الرؤيا.

وأما حديث أم سلمة فإننا نرى فيه أن الدرس بدأ إلقائياً ثم تحول إلى حوار بين الطلاب والمعلم.

وفي حديث أبي هريرة يبدأ الرسول الدرس بسؤال لينبههم إلى أهمية ما سيلقي عليهم، ثم يذكر الإجابة، فتدور المناقشة ويبدأ الحوار.

ثم يطالعنا حديث حذيفة، وهو نموذج جلي للطريقة الحوارية، لأننا نلاحظ فيه أن الحوار يحتويه إلى آخر الشوط، فالطالب يسأل والمعلم يجيب، ويبني الطالب على إجابة المعلم سؤالاً آخر، ويطلب الإجابة والمعلم لا يتضجر بل يقابل الأسئلة بصدر رحب، وحلم وأناة ويجيب عن السؤال، ثم أننا نرى الطالب يستنصح المعلم (ما ترى إن أدركني ذلك؟) والمعلم ينصحه بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ويمعن الطالب في الفرضيات، فإن لم يكن جماعة ولا إمام؟ فينصحه بالبعد عن الفتنة.

وهكذا يتنوع أسلوب المعلم مع طلابه، فتارة يستعمل الطريقة الإلقائية من أول الدرس إلى آخره، وتارة يلجأ إلى الطريقة الاستنباطية ليستخرج ما عندهم من العلم، وحيناً يبدأ الدرس بالطريقة الإلقائية ثم يعطي الطلاب الحق في المناقشة فينتقل منها إلى الطريقة الحوارية أو الاستنباطية.

---

(١) متفق عليه.

ونعلم من هذا أن المدرسة الإسلامية الأولى قد عرفت طرق التدريس واستعملتها قبل أن يؤلف في هذا الفن، ويصبح له كتب تدرس.

مكانة المعلم

للمعلم في الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة كبيرة، لأنه هو الذي يربي ويهذب، ويخرج طلابه من ظلام الجهل إلى نور المعرفة والعلم، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون هذا القدر لرسول الله ـ ﷺ ـ كما يعرفه بعضهم لبعض.

وكثيراً ما كان يظهر هذا الاحترام والإجلال عندما يلتقي الطالب ومعلمه، فيقبل الطالب يد المعلم.

عن زارع بن عامر قال: لما قد منا للمدينة، فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد رسول الله ـ ﷺ ـ ورجله[1].

وعن جميلة أم ولد أنس بن مالك، قالت: كان ثابت إذا أتى أنساً قال: أي ـ أنس: يا جارية هات لي طيباً أمسح يدي، فإن ثابتاً لا يرضى حتى يقبل يدي[2].

كما كان يظهر الاحترام من الطلاب للعلماء ومعلميهم حين يأخذ الطالب بركاب دابة المعلم.

عن عمار بن أبي عمار، أن زيد بن ثابت ركب يوماً فأخذ ابن عباس بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل لعلمائنا وكبرائنا، وفي رواية أنا أمرنا أن نأخذ بركاب معلمينا[3].

ولقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) التراتيب الإدارية (٢/٤٣٦)، ونسب روايته إلى أبي يعلى.
(٣) نفسه (٢/٤٣٦).

يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بِحَظٍ وافر[1].

وكان ـ ﷺ ـ يأمر المتعلمين بمعرفة قدر المعلمين، ويأمرهم بالتواضع لهم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه»[2].

وبالنظر في تلك الأحاديث والآثار نرى أن الإسلام أحل المعلم منزلة تتضاءل دونها أية منزلة، ويكفي المعلم منزلة أن الرسول ـ ﷺ ـ مر بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال رسول الله: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من الآخر صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون، ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلماً، ثم أقبل فجلس معهم[3].

وكما أمر الإسلام باحترام العلماء والمعلمين، لم يهمل حق المتعلمين بل حث على احترامهم وبين مكانتهم بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»[4].

آداب الطلاب

وقد عقد أبو نعيم باباً في آداب المتعلم نلخص منها ما يلي:

١ ـ أن يتعهد فمه بالنظافة لأنه لا بدّ أن يتكلم مع غيره ما دام في مجلس العلم، وخير ما يتعهد به نظافة فمه السواك (مالكم تدخلون على قلحا استاكوا).

٢ ـ أن يقص أظافره إذا طالت، وأن يتنظف نظافة تامة (ابطأ جبريل على

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٥٠، المطالب العالية (١٣٢/٣) وقال المعلق (ضعيف).

(٤) الترغيب والترهيب (٤١/١).

النبي ـ ﷺ ـ فذكر ذلك فقال: «كيف لا يبطىء عليّ وأنتم حولي لا تستنقون، ولا ولا تقلمون أظافركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تنقون رواجبكم»[1].

٣ ـ ترجيل الشعر وتسكينه ودهنه (كان لأبي قتادة وفرة، فسأل النبي عنها فقال: «أدهنها وأكرمها».

٤ ـ أن يهتم بنظافة ثيابه (أتى النبي فرأى رجلاً أشعث فقال: «أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه، ويلم شعثه»).

٥ ـ أن يمس من الطيب ما استطاع (كان النبي ـ ﷺ ـ يكره أن يخرج إلى أصحابه ثقيل الريح، وكان إذا كان آخر الليل مس طيباً).

٦ ـ أن يجتنب كل طعام له رائحة كريهة «من أكل من هذه الشجرة فلا يغشانا في مساجدنا».

٧ ـ أن يغسل يديه إذا أكل لحماً، أو نحوه لئلا يؤذي محاذيه «من أكل من هذا اللحم شيئاً فليغسل يده ولا يؤذي من يحاذيه».

٨ ـ أن يحتر زمن الجشأة في المجلس (والجشأة ريح يخرج من الفم مصحوباً بصوت، ويكون عادة عند الشبع) لأنه يؤذي الجلساء بالصوت والرائحة (جشأ رجل عند النبي ـ ﷺ ـ فقال له: كِف عنا جشأك).

٩ ـ أن يلبس الثياب التي تليق بوقار العلماء وطلبة العلم، ويتجنب كل ثوب لا يجوز لبسه (رأى رسول الله على عبد الله بن عمر ثوبين معصفرين ـ أي مصبوغين بصبغة صفراء ـ فقال: «يا عبد الله بن عمر، هذه ثياب الكفار فلا تلبسها»).

١٠ ـ أن يعتني بالمحافظة على صحته ليستعين بها على طلب العلم والتحصيل، ومن أهم الأمور التي يحافظ بها الإنسان على صحته ما يأتي:

أ ـ اجتناب ما يخل بقوة الفهم والحفظ كالمسكرات والمخدرات.

ب ـ ترك كل ما يؤدي إلى الضعف في النفس أو البدن كالسهر الكثير

---

(١) الرواجب هي مفاصل أصول الأصابع.

والجلوس في الأماكن غير الصحية والقراءة فيها.

جـ ـ التداوي عند الشعور بالمرض، لأن المرض يعطل الإنسان عن تحصيل العلم.

د ـ الاستعانة على تقوية البصر والجسم والعقل بالتنزه في البساتين ورؤية الماء الجاري والرياضة البدنية، وترك ما يورث السمن من كثرة الطعام والشراب وغير ذلك[1].

هذه آداب ذكرها علماء المسلمين وحثوا المتعلمين على التحلي بها، وقد ألف فيها كثير من العلماء كتباً تعتبر مراجع في هذا الباب منها غير ما ذكرنا لأبي نعيم الأصبهاني، آداب المحدث لعبد الغني البغدادي، وتذكرة السامع والمتكلم لبدر الدين بن جماعة، وجوهر العقدين للسمهودي، والروضة لابن الأزرق، وشرح ألفية العراقي للسخاوي ومقدمة شرح التهذيب للنووي، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة التي تناولت الموضوع.

وإن اهتمام المسلمين بالموضوع وتأليف هذه الكتب فيه دليل قاطع على عناية الإسلام به، وأنه يعتبر من الأمور الرئيسية وليس من الفروع التي لا يهتم بها.

وينبغي أن يعلم أن الإسلام لا يرى انقطاع طالب العلم للعلم بل لا بأس بأن يشتغل طالب العلم بما يقوم به حياته، ويصلح به معاشه كالتجارة أو الحرفة ونحوها.

عن ابن عباس، عن عمر قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ـ ﷺ ـ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[2].

---

(١) نقلت هذه الآداب بتصرف من كتاب التراتيب الإدارية (٢/٣٢٩ ـ ٣٣٢) وقد نقلها هو عن كتاب آداب المتعلمين لأبي نعيم.

(٢) البخاري (١/١٨٥).

ومن المعلوم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يشتغل بالتجارة، وهو لهذا كان يعمل يوماً في تجارته، ويحضر درس رسول الله ـ ﷺ ـ في اليوم الثاني.

ولهذا يعلق ابن حجر على الحديث فيقول: وفيه أن الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه ليستعين على طلب العلم وغيره، مع أخذه بالحزم في السؤال عما يفوته يوم غيبته، لما علم من حال عمر أنه كان يتعاطى التجارة إذ ذاك[1].

وكان من عادة المسلمين أن يطلبوا العلم قبل الزواج، حتى أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يحث المسلمين على ذلك قبل أن يشغلهم الزواج والأولاد، وتكاليف الحياة الزوجية عن طلبه، يقول ـ رضي الله عنه ـ: (تعلموا قبل أن تسودوا)[2].

وقد فسَّرَ بعض العلماء قول عمر فقال: أي قبل أن تتزوجوا لئلا تشغلكم أزواجكم وبيوتكم عن ذلك.

ونبغ من الصحابة رجال كان لهم تلاميذ يأخذون عنهم، ويحرصون على تقليدهم، حتى كانت آراؤهم ومذاهبهم مدارس تنسب إليهم وتشتهر بأسمائهم وهم: عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ.

وعدهم بعض المؤرخين ستة فزادوا على هؤلاء: أبو الدرداء، وأبي ابن كعب، وعمر بن الخطاب، وجعلوا علي بن أبي طالب بدلاً من ابن عباس.

وزاد بعضهم معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ وروى فيه قول ابن مسعود، كان معاذ معلماً من المعلمين على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ لأنه كان يفتي الناس في المدينة في حياة الرسول وأبي بكر.

وقد تتبع العلماء مصادر الفقه عند المذاهب الأربعة المشهورة فوجدوا

---

(١) فتح الباري (١/١٨٦).
(٢) التراتيب الإدارية (٢/٢٣٤).

أن غالب روايات الفقه المالكي والحنبلي منسوبة إلى عبد الله بن عمر، وغالب روايات الفقه الحنفي تنتهي إلى عبد الله بن مسعود، وغالب روايات الفقه الشافعي تنتهي إلى عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم أجمعين[1] ـ

هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الأمصار أنشأوا حركة علمية في كل مصر نزلوا فيه وكونوا مدارس، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون ثم تابعوهم[2].

تعليم النساء

لم يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى إلا فيما تفرض الفطرة البشرية التفريق فيه بينهما، فكل ما فرض الله على الرجال فرضه على النساء في الإطار الذي سبقت الإشارة إليه، وكل ما يحصل عليه الرجل من الثواب عن العمل الذي يعمله، تحصل عليه المرأة من غير تفريق بينهما، قال ـ تعالى ـ: ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة، ولا يظلمون نقيراً ﴾[3].

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[4].

ولهذا لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في التعليم، بل جعل تعليم المرأة أمور دينها، وما تستقيم به حياتها فرضاً يجب عليها أن تتعلمه، وحديث الرسول ـ ﷺ ـ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[5]. يشمل الرجال والنساء على حد سواء، فكما أن هذا القدر من العلم يجب على الرجل أن

---

(١) التراتيب الإدارية (٢/٤١٩ ـ ٤٢٠).
(٢) فجر الإسلام ص: ١٥٢.
(٣) النساء: ١٢٤.
(٤) النحل: ٩٧.
(٥) رواه الطبراني في الأوسط وابن ماجة.

يتعلمه كذلك يجب على المرأة أن تتعلمه، والتقصير فيه خطيئة لا يكفرها إلا الخروج من الجهل به.

يقول ابن حزم ـ رضي الله عنه فرض الإمام على أزواج النساء وسادات الأرقاء تعليمهن، إما بأنفسهم أو بالإباحة لهن لقاء من يعلمهن، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواماً لتعليم الجهال[1].

وقد ورد أن الشفاء بنت عبد الله العدوية علمت حفصة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ الكتابة بعلم رسول الله ـ ﷺ[2] ـ

وعد العلماءُ من النساء المتعلمات في عصر الرسول: عائشة وحفصة وأم سلمة أمهات المؤمنين[3].

وأم أيمن وأم عطية وعاتكة بنت زيد والخنساء بنت الشريد وقتيلة بنت النضر.

ولم يقف الإسلام عند تعليم الحرائر والاهتمام بهن بل تجاوز ذلك على الحث على تعليم الإماء، يقول ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنسبه وآمن بمحمد ـ ﷺ ـ والعبد الملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ـ ورجل كانت عنده ـ أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران)[4].

وكان ـ ﷺ ـ يخرج إلى النساء فيعظهن ويعلمهن، لأن ترك النساء بغير تعليم يؤدي إلى جهلهن بما يجب عليهن من أمور دينهن، وحقوق أزواجهن، وتربية أولادهن، والنساء نصف المجتمع، وتعليمهن يرفع من مستوى الأمة، ويمكنهن من القيام بواجبهن، وبذلك يسهمن في تطوير الحياة في الأمة التي يعيش فيها.

---

(١) الأحكام (١٢١/٥) بتصرف.
(٢) نظام الأسرة في الإسلام ص: ٣٣.
(٣) وكانت عائشة وأم سلمة يقرآن ولا يكتبان البلاذري ص: ٤٥٨.
(٤) البخاري (١٩٠/١).

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج ـ أي إلى النساء ـ ومعه بلال فظن أنه لم يسمع، فوعظهن وأمرهن بالصدقة[1].

وليس المراد بالتعليم تعليم العلوم الشرعية فقط، حيث لا مانع أن تتعلم الطب لتعالج الإناث: وتتعلم المفيد من العلوم لتعلم النساء إلى غير ذلك من العلوم التي تفيد بها بني جنسها، وستجد من الإسلام كل عون في ذلك.

ولا يشترط عليها الإسلام إلا شرطين الأول: أن تطلب العلم بحشمة ووقار فلا تخالط الأجانب ولا تزاحم الرجال في مجالسهم، والثاني: أن يكون ما تتعلمه مما يعود عليها بالنفع والخير.

عن عبد الله بن عقبة أن النبي ـ ﷺ ـ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية: ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة[2].

وهذا الحديث صريح في أنه لا بأس بأن تتعلم النساء الطب فإن الرقية نوع من الطب في ذلك العصر، وفيه أخبار بما سبق من أنها علمت السيدة حفصة الكتابة ـ رضي الله عنهما ـ.

وقد بلغ حرص النساء على التعلم أن طلبن من رسول الله ـ ﷺ ـ أن يخصص لهن يوماً يعلمهن فيه. عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قالت النساء للنبي ـ ﷺ ـ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوم من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن[3].

وفي رواية فقال: «موعدكن بيت فلانة، فأتاهن فحدثهن»[4].

والذي يظهر أن النساء كن يسألن رسول الله ـ ﷺ ـ ويحضرون درسه

---

(١) نفسه ص: ١٩٢.

(٢) البلاذري ص: ٤٥٨ والنملة قروح تخرج بالجسم وسميت بذلك لانتشارها وتفشيها بالجسم، والحديث رواه أبو داود بسند صحيح.

(٣) البخاري (١/١٩٥).

(٤) فتح الباري (١/١٩٦).

مع الرجال، حيث الوضع يسمح بذلك للقدرة على التمييز وعدم الاختلاط، فلما كثر حضور الرجال في الدرس، وأصبح حضور النساء يؤدي إلى الاختلاط الممنوع، ولم يعد هناك فرصة يتمكن فيها النساء من الاستفادة المرجوة، طلبن من الرسول ـ ﷺ ـ أن يخصص لهن يوماً يعلمهن فيه.

والرسول لم يعترض على الاقتراح، ولم يمتنع عن تدريسهن وتعليمهن مما يفيد أن التعليم حق من حقوق المرأة في الإسلام، لها أن تطالب به، وعلى الدولة أن تيسره لها بالشكل الذي يحفظ عليها عفتها وكرامتها وهي تطلب العلم.

لهذا وافق الرسول على الاقتراح، وحدد لهن مكاناً يجتمعن فيه حتى لا يزاحمهن الرجال، وقد حضر الرسول ـ ﷺ ـ في الموعد والمكان الذي حدده، فأمرهن ووعظهن وحدثهن بما يعود عليهن بالخير والنفع.

مناهج التعليم

اشتملت مناهج التعليم في عهد النبي ـ ﷺ ـ على جوانب مختلفة من العلم فلم تقتصر على العلوم الدينية، ولم تهمل العلوم الإنسانية، ولم تتجاهل المعارف التي احتاج إليها الناس في معاشهم كما يحتاجون إلى العلوم الدينية في معادهم.

لهذا كانت مناهج التعليم تحتوي على العلوم الدينية والعلوم اللغوية، وتضم العلوم الإنسانية إلى العلوم العسكرية، وخصصت قسطاً غير قليل لعلوم الطب والحساب والأنساب وعلوم الآثار.

نعم، نحن لا نستطيع أن نقول إن هناك حركة علمية منظمة كما هو معروف عندما تطلق الكلمة، ولا نستطيع أن نقول كذلك بوجود مدارس خاصة يجلس فيها المتعلمون لتلقي العلم، ولكننا نستطيع أن نجزم بأن بذور حركة علمية واسعة قد وضعت في ذلك العصر ثم أثمرت وآتت أكلها فيما بعد، كما أن توجيه النساء إلى مكان خاص يلتقين فيه كان خطوة عملية

لاتخاذ أماكن خاصة للتعليم.

وأحب أن أضيف إلى ما ذكرته سابقاً من الطرق التي اتبعت في التدريس في تلك الفترة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان ينتقل في أثناء التدريس من السهل إلى الصعب حتى يتلقى الطلاب العلم تدريجياً، كما كان يعمد إلى إبراز المعقول في صورة المحسوس ليسهل إدراكه ويستقر في العقل، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب الحديث.

وكان ـ ﷺ ـ يأمر بكتابة العلم حتى لا يتفلت من صاحبه، لأن تقييد العلم بالكتابة فيه حفظ للعلم من الضياع ولهذا لما استأذن عبد الله بن عمرو بن العاص الرسول في كتابة العلم في كل حال، قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اكتب، والذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[1] وأشار إلى فمه.

وقد أرسل الرسول المعلمين إلى أنحاء الجزيرة المختلفة ليعلموا الناس ويفقهوهم، فخلف معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ في مكة بعد الفتح ليفقه أهلها، ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن[2].

وأرسل أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن يدعوان إلى الإسلام فأسلم أهلها طوعاً من غير قتال[3].

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين فأسلم حاكمها وصدق، وأقره الرسول على البحرين يعلم أهلها، ويفقههم وظل بها حتى أخرجه أهلها عندما ارتدوا[4].

وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع الحميري وذي عمرو فأسلما وتوفي الرسول، وجرير عندهم[5]. وهكذا نلاحظ أنه في هذا العهد قد وضعت اللبنات الأولى لنهضة علمية قلما تتوفر لشعب من الشعوب وفي عهد

---

(١) البخاري (١/٢٠٤)، جامع بيان العلم وفضله (١/٧١).
(٢) فجر الإسلام ص: ١٧٣.
(٣) و(٤) و(٥) زاد المعاد (١/٦٢ ـ ٦٣).

من العهود بمثل هذه السرعة الفائقة، فإن كل ما أشرنا إليه قد تحقق للمسلمين في فترة لا تتجاوز عشر سنوات، أي منذ هجرة الرسول ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة إلى وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، ومن المعلوم أن تلك الفترة لا تعتبر شيئاً مذكوراً في حياة الأمم وتاريخها إذ تقاس حياة الأمم ونهضتها في عمرها التاريخي بعشرات السنين بل بمئاتها وآلافها.

وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يربي جيلاً وينشىء حضارة ويبعث نهضة في تلك الفترة الوجيزة فإن ذلك دليل قاطع على الإمكانات الهائلة التي يملكها هذا الدين وإذا كانت هذه الحضارة وتلك النهضة في أمة أُمِّية لم تعرف لها حضارة سابقة ولم يسجل لها التاريخ نهضة من قبل فإن ذلك يزيد من يقيننا بضخامة تلك الإمكانات مهما تجاهلها المتجاهلون، وأمعن في جحودها المنكرون.

إن عشر سنوات أو حتى ثلاثا وعشرين سنة ـ عمر الوحي بأكمله ـ لا تزيد عن عمر شاب من الشباب يضيع أكثر من نصفه في اللهو واللعب فكيف تكفي لتربية جيل وإقامة حضارة، وبعث نهضة إلا أن يكون وراء ذلك قوة خفية تصبغ المنتمين إليها بصبغة تحولهم إلى طاقات هائلة فيندفعون بكل هذه الطاقات للعمل المثمر الذي لا يعرف الملل، ولا تتسرب إليها السآمة، بل لا يعرف الراحة التي ينشدها كل مجتهد.

إن الإسلام قد لمس جوانب الخير في النفس الإنسانية ففجر ذلك السر الرباني فيها، فنهضت تبني في الحر والبرد، والشبع والجوع، والغنى والفقر، والصحة والمرض، ووضعت أساس هذا البناء وهي تئن تحت لهيب السياط فأحكمته، وتحدث بهذا الصرح الشامخ أولئك المعاندين وهي طريدة مشردة فأعجزتهم.

إنني على يقين من أن أمر هذا الدين محيِّر لمن يجهلون حقيقته، وفي نفس الوقت مدهش معجب لمن يعرفون تلك الحقيقة، إنه قادر في أي زمان ومكان على تربية جيل كالجيل الأول، وإقامة حضارة وبعثة نهضة كتلك الحضارة والنهضة السالفتين، فعلينا أن نعود إليه ليعود إلينا ما فقدناه بتركه.

الفصل الثاني

الحركة العلمية
في عصر الخلفاء الراشدين

الحركة العلمية في عصر الخلفاء الراشدين

بدأت الخلافة الرشيدة بتولي أبي بكر أمور المسلمين بعد الرسول ـ ﷺ ـ وكانت مدة خلافته مملوءة بالأمور التي شغلته عن أن يبرز له أثر في الإصلاحات الداخلية كعمارة المسجد والحركة العلمية وغيرهما، كما أن المسلمين أنفسهم كانوا في شغل شاغل عن الاهتمام بتلك الأمور حيث كانت حركة الردة قد استفحلت، وخشى المسلمون على دينهم أن يقع فريسة في أفواه الوحوش الضارية، فهبوا جميعاً لنصرته، وتأديب المتمردين وردهم إلى الإسلام أو القضاء عليهم.

وقضى على الردة والمرتدين وزحفت الجيوش الإسلامية على العراق والشام، وفاءت الجزيرة إلى ظلال الإسلام، وأخذت الحركة العلمية وضعها الطبيعي في آخر خلافة الصديق ـ رضي الله عنه ـ فهذا ابن مسعود يدرس ويفتي، وهذا معاذ بن جبل يعلم ويرشد وهكذا.

ومما لا جدال فيه أن عصر الراشدين امتداد واضح للعصر النبوي فلا غرابة أن يكون مـدّ الحركة العلمية فيه مسايراً لكل ما يجدّ من فتوح وتطور، وكل ما يدخل على المسلمين من آثار تلك الفتوح مما كان موجوداً في البلاد المفتوحة، من التقدم العلمي والحضاري.

ويظهر ذلك جلياً في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين اتسعت رقعة البلاد المفتوحة، ودخل فريق كبير من أهلها في الإسلام، وفي عقولهم علوم مدروسة، وحضارة موروثة ولم يكن عمر ممن يغيب عنهم أثر

تلك العلوم وهذه الحضارة في عقول ونفوس أصحابها، ولم يكن عمر ممن يضيق صدره بمثل تلك العلوم فيرفضها، ولا ممن يتنكرون للحضارة ويردها ولكنه كان فسيح الصدر، واسع الأفق، بعيد الغور، حريصاً على الخير.

كان ـ رضي الله عنه ـ يعلم تماماً أن هذهالعلوم وتلك الحضارة لا بدّ أن تنتقل يوماً ما إلى عقول المسلمين، وعاداتهم، ويعلم كذلك أنها لا بدّ أن تؤثر في المسلمين بقدر ما تصادف منهم من الوعي والإدراك، ومع ذلك لم ينه عنها، ولم يمنع أصحابها من التحدث بها.

لا ضير على المسلمين أن ينهلوا من العلوم ما دامت خيِّرة وصالحة، ولا ضير عليهم كذلك أن يتأثروا بالنافع المفيد من الحضارة، إذ ليس في الإسلام ما يمنع من ذلك، فالحكمة ضالة المؤمن يبحث عنها في مظانها، ويلتقطها أنى وجدها.

ولا خوف على المسلمين من علوم تدخل عليهم وقد صقل القرآن عقولهم فأصبحت تنفر من الباطل ولا تتأثر إلا بالحق، وهذَّبت السنة الشريفة أفئدتهم فلا تتفتح إلا للخير.

إن الإسلام قد وهب عقول المسلمين قوة مدركة يميزون بها بين الغث والمسلمين، وبين الخبيث والطيب، بل أصبحت عقولهم قادرة على التأثير في غيرها، منيعة من أن تتأثر في غير الحق.

لقد فتح المسلمون بلاد الفرس وبلاد الروم، وكان لكلا البلدين علوم في تنظيم الدولة، فكان لهما دواوين للأموال، ودواوين للجند، ونظام إداري يتعامل على أساسه موظفو الدولة، واستفاد المسلمون من كل ذلك في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ دون أن يؤثر ذلك في النظام الإسلامي أو يخل بطابعه العام، أو يخرجه عن المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

وكان رائد الخلفاء في ذلك حث الإسلام على طلب العلم، وترغيبه في تعلمه والاستفادة منه قال أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: لما أراد عمر ابن

الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يمسح السواد أرسل إلى حذيفة أن أبعث إليَّ بدهقان من جرجي، وبعث إلى عثمان بن حنيف أن ابعث إلى بدهقان من قبل العراق، فبعث إليه كل واحد منهما بواحد ومعه ترجمان من أهل الحيرة، فلما قدموا على عمر ـ رضي الله عنه ـ قال للدهقانين: كيف كنتم تؤدون الأعاجم في أرضهم[1]؟

وهكذا يسأل عمر الدهقانين ليستفيد من معرفتهما، ولم يمنعه ـ رضي الله عنه ـ مكانه أن يتعلم منهما ما لم يكن يعلم، ما دام لا يؤثر في عقيدته، ولا يخالف تعاليم الإسلام ومبادئه.

ولما جاء مال من البحرين عظيم، قدره خمسمائة ألف درهم، وعزم على تفرقته على المسلمين قال رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً يعطون الناس عليه قال: فدوّن الديوان[2].

لم يمتنع عمر عن نقل علوم العجم والعمل بها لما فيها من الفوائد التي تعود على المسلمين والمصلحة التي ينتفع بها الجميع، وتلك كانت سنة الخلفاء، يجهدون أنفسهم في تحصيل الخير والمنفعة للمسلمين، ولا يسألون من أي وعاء خرجت؟.

ولم تنحصر همة الخلفاء على تعليم الناس وتفقيههم في المدينة فقط أو في الجزيرة العربية فقط، ولكنها تعدت ذلك إلى البلاد المفتوحة، وقد أرسل عمر عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ إلى الكوفة ليعلم الناس فيها، وكتب إليهم (إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه)[3].

وبعث أبا موسى الأشعري إلى البصرة حاكماً ومعلماً، ولما عاد أنس بن مالك من البصرة سأله عمر، كيف تركت الأشعري؟ فقال: تركته يعلم

---

(١) الخراج ص: ٣٨.
(٢) البلاذري ص: ٤٤٠، السيوطي ص: ١٤٣.
(٣) فجر الإسلام ص: ١٥٢.

الناس القرآن. فقال عمر: إنه كبير، ولا تسمعها إياه[1].

وكما اهتم عمر ـ رضي الله عنه ـ بالعراق اهتم أيضاً بتعليم مسلمي الشام، ولما كتب إليه يزيد بن أبي سفيان بحاجة أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم أرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء، وتفرق الثلاثة في بلاد الشام، فاستقر عبادة بحمص، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، وذهب معاذ إلى فلسطين، ثم تبعه عبادة وأقام بها[2].

وكان في مصر عبد الله بن عمر بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ وهو من أجلاء الصحابة وعلمائهم كثير الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الذي استأذن الرسول في أن يكتب عنه فأذن له، وكان له صحيفة، سمعها من رسول الله، كان يسميها الصادق[3].

وهكذا وسع الخلفاء بعد رسول الله ـ ﷺ ـ مجال الحركة العلمية، حتى شملت جميع الجهات المفتوحة، وكان حرص الخلفاء على تزويد هذه الجهات بعلماء الصحابة، حتى يتعلم أهلها الإسلام من مصادره الوثيقة، وحتى تبرز في أذهانهم صورته الوضيئة من غير تشويه أو تحريف.

لقد كان لأهل هذه البلاد المفتوحة علوم وثقافة، وكانت هذه العلوم ولا شك راسخة في أذهانهم، مستقرة في عقولهم، وكان الخلفاء يخشون من ترك هؤلاء بغير تعليم لمبادىء الدين الحنيف فتزاحم علومهم القديمة ما يسمعونه من المسلمين فلا يكون للعلم الطارىء عليهم أثره في نفوسهم.

لهذا اهتم الخلفاء بتزويد هذه الجهات بفطاحل العلماء من الصحابة كي يستطيعوا إزالة ما في عقول الناس من الأوهام وتثبيت مفاهيم الإسلام الصحيحة في الأذهان.

---

(١) ابن سعد (٤/١٠٨).
(٢) الإصابة (٢/٢٦٩).
(٣) الطبقات (٧/٤٩٩).

عمر يفتتح مكاتب التعليم ويقرر العطلة

ظل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتخذون المسجد مقراً للتعليم، فيجلسون فيه حلقاً، ويقرأون القرآن، ويتدارسون العلم، وقد سمح عمر ابن الخطاب لتميم الداري أن يقص في المسجد فيعظ الناس ويعلمهم يوماً أو يومين في الأسبوع.

ولما كثرت الفتوح ودخل الناس كثيراً في الإسلام منهم العرب والعجم، وكثر الولدان، أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببناء بيوت المكاتب، ونصب الرجال لتعليمهم وتأديبهم، وكان المعلمون يدرسون على مدار الأسبوع من غير توقف.

ولما عاد عمر من فلسطين بعد صلح بيت المقدس استقبله أهلها، ومعهم الصبيان وكان اليوم الذي لاقوه فيه يوم الأربعاء فظلوا معه عشية الأربعاء ويوم الخميس وصدر يوم الجمعة فجعل عمر ـ رضي الله عنه ـ هذه الأيام هي راحة الصبيان في المكاتب، ودعا على من عطل هذه السنة[1].

وفي البخاري، ويذكر أن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بعثت إلى معلم الكتاب (إبعث لي غلماناً ينفشون صوفاً)[2].

وفي الحديث تصريح بذكر الكتاب وهو المكان الذي يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة، وهو دليل واضح على أن الخلفاء قد أولوا اهتماماً كبيراً بتعليم صبيان المسلمين، ففتحوا لهم المدارس وأسسوا لهم المكاتب، وقد ذكر البخاري في الأدب المفرد أن عبد الله بن عمر كان يمر على الصبيان في المكتب ويسلم عليهم.

لقد أدرك عمر ـ رضي الله عنه ـ أن صبيان المسلمين قد كثروا، وأصبح وجودهم في المسجد يؤدي إلى تشويش على المصلين، وأن المسجد لم يعد المكان المناسب لتعليم الصبيان، لأن عمر كان يرى أبعاد

---

(١) التراتيب الإدارية (٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٢) البخاري (١٢/٢٥٣).

كل لغط أو تشويش أو رفع صوت عن المسجد، حتى إنه ليهدد بتأديب رجلين رفعا صوتيهما في مسجد رسول الله، ولم يشفع لهما إلا كونهما غريبين عن المدينة[1].

ومن أجل تنزيه المسجد عن ذلك بنى مكاناً إلى جوار المسجد من الجهة الشرقية الجنوبية وسماها البطيحاء، وقال: من كان يريد أن يلغط، أو ينشد شعراً، أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة[2].

وكان عبد الله بن مسعود يمر بالشباب وهم يطلبون العلم فيسر بهم، ويقول لهم: مرحباً بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة[3].

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يجلس مع المسلمين، فيعلمهم ويذكرهم، وكان يستعمل معهم الطريقة الحوارية ليستخرج ما عندهم من العلم، ويثبت ما ليس عندهم في عقولهم، عن حذيفة ابن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله وجاره؟. قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع رسول الله يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك؟ قال حذيفة: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «تعرض الفتن كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشر بها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين: على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[4].

لقد سار عمر ـ رضي الله عنه ـ على هدى رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يعطل

---

(١) البخاري.
(٢) مالك في الموطأ.
(٣) جامع بيان العلم (١/٥٢).
(٤) مختصر مسلم (٢/٢٨٨ ـ ٢٨٩).

شيئاً بدأ به، ولم يغلق باباً فتحه، ولكنه كان متبعاً يسير على النهج، ويتمم ما بدأ به صاحباه.

لهذا فإنه ـ رضي الله عنه ـ أقر كل ما كان في عهد رسول الله، وبنى عليه، وزاد ما أدّاه إليه اجتهاده ووافقه عليه أصحابه، فبنى مكاتب التعليم ليكون له مكان مستقل بدلاً من المسجد، وأباح لتميم الداري ـ رحمه الله ـ أن يدرس في المسجد، ولم يكن ذلك من قبل[1]، ونقل عمر الدواوين، واتخذ نظاماً يسير عليه في الجانب العسكري والاقتصادي نقله عن الفرس والروم.

وهكذا أدخل كل علم يحتاج إليه المسلمون في تنظيم حياتهم، ولم ير بذلك بأساً، ولم يعترض عليه أحد من الصحابة.

مناهج التعليم

تكلمنا في الفصل الأول عن مناهج التعليم إجمالاً، وسنتناول بالتفصيل كل ما أجملته هناك لنتبين أنها كانت جامعة تنهض بالمسلمين، وترفع من مستواهم العلمي، وتخرج منهم أساتذة في العلم والسلوك، تفتدي بهم الأجيال اللاحقة فتسير على دربهم لتهتدي، ومنهج نهجهم لتصل إلى غايتها.

وكانت مناهج تلك المدرسة تضم كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه و دنياه كما أشرت إليه في الفصل السابق، وسيتضح من عرض هذه المناهج والكلام عليها أنها كانت سلسلة متصلة الحلقات يختل نظامها بفقد حلقة من حلقاتها، ولنبدأ بمنهاج العلوم الدينية:

أولاً ـ العلوم الدينية

لقد كان إقبال المسلمين على تحصيل العلوم الدينية إقبال الظمآن على الماء البارد، وليس في ذلك غرابة لأن العرب لم يشعروا بوجودهم الحقيقي

---

(١) الأوائل ص: ٢٩٥.

إلا بعد أن أكرمهم الله بهذا الدين، ولم يعرفوا كيانهم إلا بعد أن وضع الإسلام أيديهم على عظم الرسالة التي حملوها.

ولقد كان العرب قبل الإسلام كمّاً مهملاً، وأشباحاً لا حقيقة لها، فلم يكد الإسلام يطرق قلوبهم بمبادئه الخالدة وآدابه السامية حتى أدركوا سر وجودهم في هذه الحياة وأحسوا بعظم المسؤولية التي ناءت بها السماوات والأرض والجبال، وحملها بعد ذلك الإنسان.

لا غرابة إذن أن ينكب المسلمون على العلوم الدينية فينهلوا منها بالقدر الذي يطفىء ظمأهم، ويشفي غليلهم.

إن القرآن الكريم بنفحاته العجيبة، وأسراره المدهشة، ونسقه المعجب، وتأثيره العميق قد ترك في نفوس العرب شوقاً إلى مصدر سره لا يهدأ، وظمأ إلى حقيقة نفحاته لا يروى، وتطلعاً إلى استيعاب عجائبه لا ينتهي.

والحديث الشريف بأسلوبه الأخاذ، ومعانيه الرائعة، وألفاظه الجزلة الرشيقة، ودلالاته الرقيقة الأنيقة قد حرك القلوب لتنهل من معينه، وتكتشف عجائب مكنونه.

إن المسلمين وقد علموا أن القرآن الكريم والسنّة المطهرة هما مصدرا التشريع، فقرروا أن يعكفوا على دراستهما، وأن يفنوا حياتهم في تحصيل معانيهما، فمنهما يؤخذ الفقه الذي هو مدار الأحكام الشرعية، وغيرهما من العلوم تبع لهما.

جد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في فهم الكتاب والسنة، وتنافسوا في تحصيل معانيهما وما يمكن أن يترتب على تلك المعاني من العلوم، ونشأ عن ذلك التنافس والحرص ظهور عقليات فذة، وعبقريات نادرة انفردت كل منها بميزات وخصائص، جعلت من مجموعهم إطاراً عاماً تبرز من خلاله صورة الدين الجديد وضيئة ناصعة. متكاملة رائعة.

فقد برز منهم قضاة أدهشوا علماء القانون بأحكامهم التي أصدروها

فيما عرض عليهم من القضايا، روى عبد الرازق والبيهقي أن عمر عرضت عليه قضية أمرأة زنت، وكانت حبلى فأمر برجمها فأشار معاذ بن جبل بحبسها حتى تضع، ووقعت إشارة معاذ من نفس عمر موقعها فأدرك عمر ما كان سيقع فيه من خطأ في الحكم لأنه لو تم رجمها وهي حامل سيموت معها جنينها، عندئذٍ قال عمر: عجزت النساء أن تلدن مثل معاذ، ولـولا معاذ لهلك عمر[1].

والمتأمل لرأي معاذ ـ رضي الله عنه ـ يرى فيه فقهاً نادراً، فقد أدرك بعقله القضائي، وفقهه المستنير أن عمر ـ رضي الله عنه ـ أوشك أن يقتل نفساً بغير حق، إن ذلك الجنين الذي تحمله تلك المرأة بين أحشائها بريء لم يفعل ما يستحق عليه القتل، فلماذا يذهب ضحية هذا الحكم؟.

فاستدرك معاذ وأشار بحبسها حتى تضع جنينها، وأدرك عمر ما أنقذه الله به على يد معاذ البصير الفقيه القاضي فقال ما قال.

كذلك كان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ذا عقل قضائي ملهم، وكان أخبر بطرق التحقيق التي يكتشف عن طريقها الحق ويقضي به، حتى كان يفرق بين الشهود، ويسأل كل واحد منهم على حده ليتضح له الأمر، ويحكم فيه على ضوء ما وصل إليه من التحقيق، روى أبو هلال أن قوماً خرجوا في خلافة على سفرا فقتلوا بعضهم، فلما رجعوا طالبهم علي بمن قتلوه، وأمر شريحاً بالنظر في أمرهم بإقامة البيِّنة، ولكن علياً ـ رضي الله عنه ـ لم يعجبه تصرف شريح في التحقيق فقال:

أوردهـا سعد وسعـد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وتولى هو التحقيق بنفسه ففرق بين المتهمين، وسألهم فاختلفوا، فلم يزل بهم حتى أقروا فقتلهم[2].

وقد ثبت له من الآراء الصحيحة في القضايا المعقدة ما جعله مضرب

---

(١) التراتيب (٢/٤١٩)، الإصابة (٣/٤٢٧).

(٢) الأوائل ص: ١٦٨.

المثل حتى قالوا فيه (قضية ولا أبا حسن لها).

إن المثال السابق يدل على عبقرية علي ـ رضي الله عنه ـ وفقهه لما يجب أن يدور عليه التحقيق في القضايا التي ليس عليها شهود إثبات، إن التحقيق مع المتهمين متواجهين يؤدي إلى اجتماعهم على قول واحد، ويذكر بعضهم بأشياء قد نسيها مما اتفقوا على القول به حتى يخرجوا من التهمة أبرأ من الذئب من دم يوسف ـ عليه السلام ـ ويوحي لهم بما يجب أن يقولوا حتى لا تثبت عليهم التهمة.

أدرك عليّ ذلك كله فعمد إلى التفريق بين المتهمين حتى يسمع من كل منهم على انفراد ويدرك مدى الاختلاف بينهم في الأقوال، فيتبين له الحق فيقضي به.

وكان من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقهاء أدركوا أسرار التشريع، وحرصوا على أن تكون آراؤهم مستمدة من القرآن الكريم، ومن السنة الشريفة، ونبغ فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وغيرهم وكان لهؤلاء تلاميذ يتبنون آراءهم ويحملون فقههم.

وكان منهم المفسرون الذين وفقوا في فهم معاني القرآن العظيم، وعلموا من أسباب النزول ما أنار لهم الطريق في فهمه على أكمل وجه، كعبد الله بن عباس الذي كان يلقب بترجمان القرآن، وعبد الله بن مسعود الذي كان يقول: ولا أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني إلا رحلت إليه، وما في كتاب الله سورة ولا آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ومتى نزلت. قال أبو وائل: فما سمعت أحداً أنكر ذلك عليه[1].

ومنهم أُبَيّ بن كعب الذي قال له الرسول ـ ﷺ ـ إن الله أمرني أن أقرأ عليك[2] ومنهم زيد بن ثابت الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر ـ رضي الله

---

(١) الاستيعاب (٢/٣٢١).
(٢) الإصابة (١/١٩).

عنهما ـ وأعطاه الرسول راية بني النجار يوم تبوك، فقال عمارة بن حزم وكانت معه الراية، فأخذها النبي ـ ﷺ ـ وأعطاها زيداً؛ يا رسول الله، بلغك عني شيء؟ قال: «لا، ولكن القرآن مقدم»[1].

وكان حفاظ القرآن على عهد رسول الله قليلين حتى حضرهم جماعة في أربعة نفر هم: أُبَيّ بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت، وأبو زيد قيس بن السكن، وزادهم جماعة إلى عشرة هم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء عويمر ابن عامر، وزيد بن ثابت، وأبو زيد قيس بن السكن، وتميم الداري، وعبادة ابن الصامت، وأبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري[2].

وبلغ عددهم عند صاحب الفجر الساطع خمسة عشر رجلاً أو يزيدون، ذكر منهم الخلفاء الأربعة والعبادلة الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، وأبا هريرة عبد الله بن عامر الدوسي، وعبد الله بن السائب[3].

ومهما بلغ عدد الحفاظ في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فهم قليلون، وليس أدل على قلتهم من محاولة إحصائهم، ثم إن حصرهم في أربعة قول مردود عقلاً إذ لا يعقل أن يكون الذين جمعوا القرآن حفاظاً في ذلك العهد من القلة إلى هذا الحد، ولهذا أنكر هذا الحصر كثير من العلماء، وتأولوا قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: لم يجمع القرآن غير أربعة، على أن المراد لم يجمعه على وجوهه من القراءات التي أنزل بها إلا أولئك الأربعة.

ولعل الذي دعا أنسا ـ رضي الله عنه ـ إلى أن يقول ذلك ما روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خذوا القرآن من أربعة، من ابن أم عبد ـ يعني عبد الله بن مسعود ـ ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة»[4].

---

(١) نفسه (١/٥٦١).
(٢) التراتيب (١/٤٦).
(٣) التراتيب (١/٤٥).
(٤) الاستيعاب (٢/٣١٩).

ولكن هذا لا يدل على أن الذين كانوا يحفظون القرآن أربعة، ولكنه يدل على أن هؤلاء الأربعة قد اتقنوه بحيث لا يقدم عليهم غيرهم.

وهذا الحديث يدل على أن الحفاظ كانوا متفاوتين في الجودة والإتقان شأنهم في ذلك شأن كل طائفة من الناس تجتمع على أمر من الأمور فإنهم لا بدّ أن يتفاوتوا في تحصيله وإتقانه بحسب مواهبهم وملكاتهم.

ولا شك أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، وفهمه والعمل بما فيه، ولم يكن المقياس عندهم كثرة الحفظ، ولكن المقياس الحقيقي كان مرتبطاً بفهم ما يحفظ والعمل به، يقول أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا[1].

وأقام ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ على حفظ البقرة ثماني سنوات، لأنه كان لا ينتقل من الآيات حتى يفهمها[2].

والمفهوم من هذا أن الحفاظ في هذا العهد لم يكونوا مجرد لسخ من القرآن متكررة، وإنما كانوا نماذج عملية لما يطالب به القرآن الكريم المسلمين من الفهم والوعي والعمل، أي أن المسلمين كانوا في حركة دائبة في مدارسة القرآن للوقوف على أسراره، والتحلي بأخلاقه، والتمسك بتعاليمه، فالقرآن إذن كان مدرسة يحرص كل الأصحاب على الالتحاق بها، والاستفادة من نظمها، حتى كان الذين يشغلون عن ذلك بالجهاد أو طلب الرزق يندمون على ما فاتهم وإننا لنرى خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لم يدع له الجهاد في سبيل الله فرصة لدراسة القرآن وتعلمه فيشعر بالندم لما فاته من الخير، فيقول: لقد شغلني الجهاد عن تعلم الكثير من القرآن[3].

ويأتي دور المحدثين، وهم أولئك الذين رووا عن رسول الله ـ ﷺ ـ وضبطوا عنه قوله أو فعله أو إقراره، وهؤلاء قد حفظوا للإسلام ثروة

---

(١) رواه أحمد.
(٢) الاتقان (٢/٢٠٨).
(٣) الإصابة (١/٤١٤).

عظيمة، من الأحاديث الشريفة التي تعتبر تفسيراً للقرآن الكريم أو إنشاء لأحكام لم ترد في القرآن أو توضيحاً لمعنى مبهم أو تفصيلاً لمجمل أو تقييداً لمطلق.

ولولا الأحاديث لضاع كثير من الأمور التي لم تعرف إلا عن طريقه كعدد ركعات الصلاة وأوقاتها وماذا يقال فيها؟ ومقادير الصدقات ومن أي الأصناف تخرجها؟ وأركان الحج وكيف نؤديها؟ إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن معرفتها إلا بمعرفة الحديث الشريف.

فالمحدثون إذن هم أصحاب ذلك الدور العظيم الذين حفظوا بجهودهم نصف الدين من الضياع، وصانوه من التحريف، ولقد أدرك الصحابة قيمة ما يؤدون للدين من الخدمات عن طريق حفظ الحديث والدقة في روايته، فبذلوا قصارى جهدهم في حفظه وضبطه، ولم يكن لهم سوى عقلوهم يعتمدون عليها في حفظ تلك الثروة العظيمة، وبخاصة وقد نهاهم الرسول ـ ﷺ ـ عن الكتابة حتى لا يختلط الحديث بالقرآن.

وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقد أحصى ما رواه فإذا هو ٥٢٧٤ حديثاً[1]، وكانت عائشة ـ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها تلي أبا هريرة في كثرة الرواية حيث أحصوا لها ما يزيد على ألفين ومائتي حديث، وكان لعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقرب من ذلك، وأما جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس فقد روى لكل منهما أكثر من ألف وخمسمائة حديث[2].

ويعتبر علماء الحديث هؤلاء الستة أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ـ ﷺ ـ بهذا الترتيب، وإننا لنرى الفرق كبيراً بين عدد ما روى أبو هريرة وبين ما روت السيدة عائشة إذ تبلغ زيادة أبي هريرة أكثر من ثلاثة آلاف حديث.

ولقد كانت تلك الكثرة في حديث أبي هريرة مثار أخذ ورد، وجذب

---

(١) الإصابة (٤/٢٠٥).

(٢) فجر الإسلام ص: ٢١٨.

وشد وعرضته ـ رضي الله عنه ـ للاتهام من كثير من الكتاب مسلمين وغير مسلمين، وقالوا عنه ما هو منه براء، ويبدو أن الكلام في هذا الموضوع ليس جديداً، لأننا نلمس من كلام أبي هريرة ما يفيد أن بعض الصحابة شك في حديثه، ولم يسلم به.

روى مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال: (يقولون إن أبا هريرة قد أكثر ـ والله الموعد ـ ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه وسأخبركم عن ذلك: إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم، وأما إخواني من المهاجرين فكان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ـ ﷺ ـ على مـلءِ بطني فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا).

وفي البخاري عن أبي هريرة قلت: يا رسول الله، إني لأسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، فقال: «أبسط رداءك» فبسطه، ثم قـال: «ضمه إلى صدرك» فضممته، فما أنسيت حديثاً بعد.

وفي هذين الحديثين يبين أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ السبب في أنه كان أكثر الصحابة جمعاً للحديث ويكشف السر الـذي من أجله كان أحفظ أصحابه له، ولقد بلغ استكثاره من الحديث أن شك فيه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ حين عرض عليه حديث أبي هريرة أن من اتبع جنازة فصلى عليها فله قيراط، فقال ابن عمر: أكثر علينا أبو هريرة.

وذهب ابن عمر إلى أم المؤمنين عائشة، فسألها عن الحديث فصدقت أبا هريرة، فقال ابن عمر: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[1].

من هذا نعلم أن إثارة الشبهة حول أبي هريرة والطعن فيه، والتقول عليه، إرجاف لا أصل له، وخوض في أمر لا ينبغي للمحقق الخوض فيه، واتهام بالباطل لمن لم تثبت إدانته، حيث ثبت في الصحيح أنه كان متفرغاً لجمع الحديث في الوقت الذي شغل عنه غيره من الأصحاب، وأن الرسول ـ ﷺ ـ قد خصه بما يستطيع به أن يحفظ عنه ولا ينسى، فلا يستبعد حينئذٍ أن

---

(١) الإصابة (٤/٢٠٨).

يكون عنده من الحديث ما لا يكون عند غيره، وأن يجمع من الحديث ما لا يتمكن غيره من جمعه، ولا مجال بعد ذلك لمشكك أو مثير فتنة.

ويعتبر الحديث أوسع أنواع العلوم الدينية باباً، وأفسحها ميداناً، حيث تفرعت منه علوم كثيرة كالسيرة والتاريخ، والفقه والتشريع، وترجمة الرجال وفضائل الأمم وقد عقدت لكل هذه الفنون فصول خاصة في كتب الحديث الصحيحة، ثم تطورت حتى أصبحت علوماً مستقلة.

وما عرضناه في هذه الصفحات يتضح أنه كان في عهد رسول الله والخلفاء الراشدين حركة علمية أساسها العلوم الدينية، وأن هذه العلوم كانت هي الأصل الذي عكف على دراسته المسلمون الأولون لشعورهم بـأن الإسلام يوجب عليهم معرفة أصول الدين والتمكن منها عن طريق كتاب الله وسنّة رسوله ـ ﷺ ـ.

ثانياً ـ علوم العربية

وفي هذا العصر ارتفعت بعض الأصوات بتدوين قواعد اللغة العربية. يذكر المؤرخون منها الإمام علي بن أبي طالب وأبو الأسود الدؤلي.

يقول أبو الأسود الدؤلي: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية.

قال: ثم أتيته بعد ثلاث، فألقى إليَّ صحيفة فيها باسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف: فالاسم ما انبنى على مسمى والفعل ما انبنى على معنى، والحرف ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي: تتبعه، وزد فيه ما وقع لك.

واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر

---

(١) التراتيب الإدارية (٢/٢٧٢).

ولا مضمر وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.

قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء عرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها؛ إن ولَيتَ ولَعلَّ وكأنَّ، ولم أذكر لكِنَّ، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، قال: بل هي منها فزدها فيها.

ويروي أبو علي القالي عن أبي العباس المبرد قال: أول من وضع العربية، ونقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي، وقد سئل أبو الأسود عمن نهج له الطريق فقال: تلقيته عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه[1] ـ

ويقول العسكري: سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ ﴿إن الله برىء من المشركين ورسوله﴾ ـ بكسر رسوله ـ فقال: لا يسعني إلا أن أصنع شيئاً أصلح به، نحوَ هذا، فوضع النحو[2].

وهكذا نرى أن أبا الأسود هو الذي وضع مبادىء هذا العلم، وأبو الأسود كان من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ وعلى هذا يكون هذا العلم قد نشأ في عصر الخلفاء الراشدين.

ولقد ذكر بعض المؤرخين أن النحو وضع في عهد بني أمية وأن زياداً هو الذي أمر أبا الأسود بوضعه، وذلك عندما دخل عليه رجل بالبصرة فقال: أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون؟ وقال: ادع أبا الأسود، فقال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضعه لهم[3].

وإذا صحت تلك الرواية فإنها لا تخرج الموضوع عن حقيقته من كونه وضع في عهد الخلفاء لأن تضافر الروايات الكثيرة على أنه وضع في عصر علي ـ رضي الله عنه ـ تجعلنا نقطع بأنه على الأقل قد بدىء في وضعه في ذلك الزمان، ثم استمر يتم شيئاً فشيئاً حتى اكتمل وصار علماً له قواعده وأصوله التي يدرس عليها.

---

(١) الإصابة (٢/٢٤٢).
(٢) الأوائل ص: ٢٩٦ والآية من سورة التوبة: ٣.
(٣) الأوائل ص: ٢٩٦.

ويؤكد هذا أن أبا الأسود كان يضع في كل مناسبة ما يرى الناس في حاجة إليه فقد رووا أن ابنة أبي الأسود قالت له يوماً: ما أشدُّ الحر؟ فقال لها ما نحن فيه ـ وقد كان في شدة الغيظ ـ فقالت: إنما أردت أنه شديد، فقال: قولي: ما أشدَّ الحر وعلى أثر ذلك عمل باب التعجب.

وقالوا: إنه مر به رجل فارس فلحن، فوضع باب الفاعل والمفعول، يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ فلما جاء عيسى بن عمر تتبع الأبواب، فهو أول من بلغ الغاية فيه[1].

وكان الشعر أحد الفروع التي اهتم بها المسلمون في ذلك الزمان من علوم العربية حتى كان كثير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعتنون بحفظ الشعر ويحثون عليه ومنهم ابن عباس وأم المؤمنين عائشة، وغيرهما، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يضرب أولاده إذا فرطوا في ذلك[2].

وكان لرسول الله ـ ﷺ ـ شعراء يردون عنه هجاء الهاجين، ويدافعون عن الدين ويمدحون المسلمين، ومن أشهرهم حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري، روى أبو داود عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله[3].

وظل حسان ينشد الشعر في مسجد رسول الله حتى خلافة عمر، فقال له عمر: أتنشد الشعر في مسجد رسول الله؟ فقال حسان: لقد أنشدت فيه وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس؟» قال: نعم[4].

---

(١) الإصابة (٢/٢٤٢).
(٢) التراتيب (٢/٢٩٩).
(٣) الإصابة (١/٣٢٦).
(٤) متفق عليه.

والرسول ـ ﷺ ـ وإن لم يكن شاعراً، وما كان ينبغي له أن يكون شاعراً، إلا أنه كان يطرب للشعر، ويهش للشعراء، قدمت الخنساء بنت عمرو ابن الشريد مع قومها على النبي ـ ﷺ ـ فأسلمت معهم، وكان الرسول يستنشدها ويعجبه شعرها، وكانت تنشده وهو يقول: هيه يا خناس ويومىء بيده[1].

ولما قتل ـ ﷺ ـ النضر بن الحارث يوم بدر أنشدته ابنة النضر ـ قتيلة ـ شعرها المشهور الذي قالت فيه:

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان يعتق مُعتِقِ

فلما سمع رسول الله الشعر رق لها وبكى، وقال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه[2].

والقرآن الكريم وإن كان قد ندد بالشعر والشعراء إلا أنه استثنى منهم المؤمنين الصالحين؛ أتى قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزل قوله تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾[3].

فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ اقرأوا، فقرأوا (والشعراء يتبعهم الغاوون) حتى بلغوا قوله ـ تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فقال: أنتم هم ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ فقال: أنتم هم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ فقال: أنتم هم[4].

---

(١) الاستيعاب (٤/٢٩٥)، والإصابة (٤/٢٨٧).
(٢) الاستيعاب (٤/٣٩١)، الإصابة (٤/٣٨٩).
(٣) الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.
(٤) فتح القدير (٤/١٢٣).

إذن فليس كل شاعر غاوياً، وليس كل الشعراء هائمين في أودية الضلال، بل منهم المؤمنون الصالحون، ومن الشعر ما هو حلال طيب، حتى قال الرسول لحسان: «هاجهم وجبريل معك»[1] وقال: «إن من الشعر حكماً، ومن البيان سحراً»[2].

ولهذا كانت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: عليكم بالشعر فإنه يعرب ألسنتكم[3]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: الشعر ديوان العرب، فإذا خفى عليكم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغه العرب فارجعوا إلى ديوانها، فالتمسوا معرفة ذلك منه[4].

فالشعر العربي مرجع لمن خفي عليه شيء من القرآن الكريم والسنّة المطهرة، ولقد كان كبار الصحابة أنفسهم يلجأون إلى الشعر إذا خفى عليهم شيء من معاني القرآن الكريم.

روى الشاطبي في الموافقات أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان على المنبر يوماً فقرأ، ﴿ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾[5] ثم سأل ما التخوف؟.

تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود السبعة السفن[6]

فعمر ـ رضي الله عنه ـ لما خفيَ عليه معنى التخوف سأل عنه، وكانت الإجابة من شعر العرب ومن هنا يتبين لنا قيمة الشعر العربي بالنسبة لما يخفي علينا من كلمات القرآن، ومن هنا ندرك حرص السلف على حفظ الشعر وحثهم على تعلمه والعناية به.

---

(١) البخاري.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.
(٣) التراتيب (٢/٣٠٠).
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) النحل: ٤٧.
(٦) الموافقات (٢/٦١)، وعندما سمع عمر قول الرجل قال: أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم.

وكما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعجب بالشعر ويطرب لسماعه، بل وكان يردده مع أصحابه في كثير من الأحيان، كان الخلفاء الراشدون كذلك.

فأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يحفظ ما ينشد أمامه من الشعر ويعيه، ولما جاء عباس بن مرداس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال له الرسول: أنت القائل: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟.

فقال أبو بكر مصححاً ما وقع من خطأ في البيت: بين عيينة والأقرع.

وكذلك كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يعجبه الشعر ويهتزله روى أن قثم ابن نويرة أخا مالك بن نويرة لما حضر إلى المدينة يشكو خالداً للخليفة أنشد عمر شعراً رثى به أخاه مالكاً حتى بلغ قوله:

وكنا كندمانَيْ جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال عمر: هذا والله التأبين، ولوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك[1].

ومما أثر عن عمر أنه كان يكره اللحن ويعاقب عليه، لأن فيه تضييعاً للمعاني وتلبيساً على السامع؛ روى ابن الأنباري أن كاتب أبي موسى الأشعري كتب إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ (من أبو موسى) فكتب عمر إلى أبي موسى، إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً وأعزله عن عمله، وكان إذا سمع رجلاً يخطىء فتح عليه، فإذا أصر على لحنه ضربه بالدرة، وكذلك كان ابنه عبد الله يضرب ولده إذا لحن في القرآن[2].

وأما علي بن أبي طالب فكان فحلاً لا يبارى في الشعر، ولشهرته فيه وصيته الذي ذاع في كل مكان نُسِب إليه كثيرٌ مما ليس له فيه يد من الشعر والنثر، ولكن ذلك لا يمنع من عده ضمن فحول الشعراء في ذلك الحين.

---

(١) الصديق أبو بكر ص: ١٦١.
(٢) التراتيب (٢/٣١٥).

قال الشهاب البرييز: الصحابة كانوا معدن الشعر ومنبعه، وكان أشعرهم الخلفاء الأربعة[1] ولا نستطيع أن نسلم بالفقرة الأخيرة من كلام الشهاب (وكان أشعرهم الخلفاء الأربعة) ذلك لأن الخلفاء الراشدين ـ رضوان الله عليهم ـ كان عندهم ما يشغلهم عن قول الشعر بله أن يبرزوافيه فيكونوا أشعر الصحابة، على أننا لم نعثر لأحد منهم على قصائد طوال، وإنما هي الأبيات يعبر بها عن معنى في نفسه، فكيف يكونون أشعر الصحابة؟.

وليس إقلالهم من الشعر منقصة في حقهم، ولا إخراجهم من بين الشعراء مرة واحدة تنزيلاً من مكانتهم، فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يعرف الشعر بل ولا يحسن إعادة ما سمع منه، ومع ذلك فهو أعلى الناس قدراً وأعظمهم ذكراً.

ومما يدل على ذلك ما رواه ابن عبد البر، وذكره الخزاعي في الدلالات السمعية من أن السملمين ذهبوا إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وطلبوا منه أن يرد على المشركين هجاءهم، فقال: إذا أذن لي الرسول فعلت، فقالوا: يا رسول الله ائذن له، فقال ـ ﷺ ـ: «إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك منه».

ثم قال: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟» قال ابن سيرين: وانتدب لهجو المشركين ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة[2].

ألست ترى معي أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يرَ في شعر علي ـ رضي الله عنه ـ وهو أشعر الخلفاء، ما يغني في هجو المشركين؟ أو ليس في انتدابه ثلاثة من الأنصار لهذا الأمر ما يدل على أنهم كانوا أشعر من غيرهم، ولو كان في شعر أحد الخلفاء الأربعة غناء لانتدبه الرسول لذلك؟؟.

ونحن بذلك لا نغمط الخلفاء الأربعة حقهم في هذا الميدان، فإننا

---

(١) التراتيب (١/٢١١).
(٢) التراتيب (١/٢١٠).

نلمس في شعرهم مع قلته قوة الإيمان، ورقة الألفاظ، وغزارة المعاني، وروعة التصوير، ودقة التركيب وعذوبة الفكرة، وسنعرض هنا نماذج من الشعر إتماماً للفائدة.

١ ـ من قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في قصة الهجرة:

قال النبي ـ ولم أجزع ـ يوقرني ... ونحن في سدف من ظلمة الغار[١]
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لي منه باظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين كادته لكفار
والله مهلكهم طرا بما كسبوا ... وجاعل المنتهى منهم إلى النار
وأنت مرتحل عنهم.. ومرتحل ... إما غدواً وإما مدلج سار
وهاجر أرضهم حتى يكون لنا ... قوم عليهم ذوو عز وأنصار
حتى إذا الليل وارتنا جوانبه ... وسد من دون من تخشى بأستار
سار الأريقط يهدينا وأينقه ... ينقبن بالقوم نعبا تحت أكوار
يسعفن عرض الثنايا بعد أطولها ... وكل سهب رقاق الترب موّار

وله ـ رضي الله عنه ـ يصف صدود المشركين عن الإسلام ويهددهم.

أمن طيب سلمى بالبطاح الدمائث ... أرقت، وأمر في العشيرة حادث
ترى من قريش فرقة لا يصدها ... عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا ... عليه وقالوا: لست فينا بماكث
إدا ما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهروا هرير المحجرات اللواهث[٢]
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فما طيبات الحل مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم ... فليس عذاب الله عنهم بلابث[٣]

---

(١) يوقرني: يهدؤني، والسدف جمع سدفة أي الظلمة.
(٢) المحجرات اللواهث: الكلاب.
(٣) القصيدة الأولى ذكرها السهيلي في الروض الأنف (٢/٦ ـ ٧)، وأما القصيدة الثانية فقد ذكرها ابن هشام في السيرة وابن كثير في البداية، وذكر ابن هشام أن أهل العلم ينكرونها لأبي بكر (٢/١٧١).

٢ ـ من كلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يشيد بنصرة الإسلام يوم فتح مكة.

ألم تـرَ أن الله أظهـر دينـه ... على كل دين قبل ذلك حاشد
وأمكنـه من أهـل مكـة بعـدمـا ... تداعوا إلى أمرٍ مِنَ الغي فاسـد
غداة أجال الخيل في عرصاتها ... مسـومـة بين الـزبيـر وخـالـد
فأمسى رسول الله قد عز دينـه ... وأمس عداه من قتيل وشـارد[1]

وله ـ رضي الله عنه ـ في رثاء النبي ـ ﷺ ـ وفيها يعتذر عن موقفه يوم الوفاة.

لعمـري لقد أيقنت أنـك ميت ... ولكنما أُبدي الذي قلته الجذع
وقلت: يغيب الوحي عنا لفقده ... كما غاب موسى ثم يرجع كما رجع
وكان هـوايَ أن تـطول حياتـه ... وليس لحيٍّ في بقا ميتِ طمـع
فلم تك لي عند المصيبة حيلة ... أراد بهـا أهل الشمـاتة والقـذع
وقد قلت من بعد المقالة قـولة ... لها في قلوب الشامتين بها بشع
ألا إنمـا كـان النبي مـحمـد ... إلى أجل وافى به الوقت فانقطع[2]

٣ ـ وأما عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فكان يردد هذين البيتين من كلامه.

تفنى اللذاذات ممن نال صفوتها ... من الحـرام ويبقى الإثم والعار
يلقي عـواقب سـوء من مغبتهـا ... لا خير في لذة من بعدها نار[3]

٤ ـ والإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يذكر ما دار بينه وبين عمرو بن عبد ودّ يوم الخندق فيقول:

نصر الحجارة من سفـاهة رأيـه ... ونصـرت رب محمـد بصـوابي

---

(١) شعر الدعوة الإسلامية ص: ٢٦٤.
(٢) الروض الأنف (٢/٣٧٧ ـ ٣٧٨).
(٣) شعر الدعوة ص: ٥١٦.

فصددت حين تركته متجدلا كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو انني كنت المقطر بزنى أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الأحزاب[1]

ويقول ـ كرم الله وجهه ـ مبيناً خطأ الذين يزعمون أن التقوى في اللباس الخشن والمظهر الرث.

أجد الثياب إذا اكتسيت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودع التواضع في الثياب تخشعا فالله يعلم اتكن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة عند الإله، وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن تخش الإله وتتقي ما يحرم[2]

٥ ـ وللزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ يندم ويعتذر عن موقفه يوم الجمل بعد أن أقنعه علي بخطأ خروجه.

اخترت عارا على نار مؤججة ما أن يقوم لها خلق من الطين
نادى عليّ بأمر لست أجهله عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني
ترك الأمور التي أخشى عواقبها في الله أحسن في الدنياوفي الدين[3]

٦ ـ ورووا لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ هذه الأبيات فيمن تألبوا على عثمان بن عفان، وحضروا إلى المدينة لقتله وتركوا الجهاد بالثغور.

أتركتمُ غزو الدروب وجئتم لقتال قوم عند قبر محمد
فلبئس هديِ الصالحين هديتم ولبئس فعل الجاهل المتعمد
إن تقبلوا نجعل قرى سوداتكم حول المدينة كل لدن مزود
أو تدبروا فلبئسما سافرتم ولمثل أمر إمامكم لم يهتد

---

(١) رواها ابن هشام عن ابن إسحاق، وقال ابن هشام: وأكثر أهل العلم يشك فيها لعلي بن أبي طالب (٣/١٣٥).
(٢) البداية والنهاية (٨/١٠).
(٣) مروج الذهب (٢/٢٤٧).

وكـأن أصحـاب النبي عشيـة بـدن تنحر عنـد باب المسجـد
فـابك أبـا عمرو لحسن بـلائـه أمسى مقيما في بقيع الغرقد[1]

٧ ـ وفي الأبيات الآتية يمدح العباس بن مرداس رسول الله ـ ﷺ ـ ويفتخر بنصر الرسول وشجاعة قومه يوم اللقاء.

إمّـا أتيت على النبي فقـل لـه حقاً عليك إذا اطمأن المجلس
يا خير من ركب المطيَّ ومن مشى فـوق التـراب إذا تعـد الأنفس
إنـا وفينـا بـالـذي عـاهـدتنـا والخيل تقدع بالكماة وتضـرس
حتى صبحنـا أهـل مكـة فيلقـا شهباء يقدمهـا الهمام الأشـوس
وعلى حنين قد وفى من جمعنا ألف أمـد به الـرسول عـرندس
كـنـا أمـام المـؤمنـين دريئـة والشمس يـومئـذٍ عليهم أشمس
نمضي ويحـرسنا الإلـه بحفـظه والله ليس بضـائـع من يحـرس
وغـداة أوطـاس شـددنـا شـدة كفت العدو وقيل منها: يا احبسوا
تـدعـو هـوازن بـالإخـاوة بيننـا ثـدي تعـد بـه هـوازن أيبس
حتى تـركنـا جمعهم وكـأنـه عيـر تعـاقبـه السبـاع مفـرس[2]

وهذه النماذج كافية لتعطينا صورة واضحة عن اتجاه الشعر والشعراء في هذا العصر نرى فيها على اختلاف مستوياتها روحاً دينية عميقة سخرت الشعر لخدمة الدعوة الإسلامية كما نرى فيها على اختلاف فنونها أثـر الإيمان والاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام والخشية من الله ـ عز وجل ـ ونظرة الاحترام والتقدير لرسول الله ـ ﷺ ـ.

ونستطيع أن نقول بعد ذلك إن الشعر وسيلة من أعظم وسائل الإعلام استغلها المسلمون في التعريف بالإسلام، والتعبير عما في نفوسهم في المناسبات المختلفة والرد على ذوي الشبهات والإلحاد، وبعد أن كان الشعر قبل ذلك مطية يصل عليها الشاعر لأغراضه الشخصية ومآربه الذاتية، أصبح

---

(١) شعر الدعوة ص: ٤٨٢.
(٢) نفس المرجع ص: ٣٠٠.

لسانا يترجم مبادىء الإسلام ويعلن رأي الدولة، وحجة تدمغ الباطل، وتكشف زيفه، وقوة يرهبها العدو، ويحذرها المحايد.

ومن المعلوم أن الشعر بوزنه الموسيقي الأخاذ، وقافيته الرتيبة الجذابة أخف على السمع، وأسهل في الحفظ، وأعذب في السماع، وأعظم في التأثير، لهذا كان موقف الإسلام من الشعر موقف التقدير لمهمته، والتأييد لرسالته، حتى قال الرسول ـ ﷺ ـ فيه: «وإن من الشعر لحكما»[1].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم، فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب ابن مالك، ثم أرسل إلى حسان ابن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فريَ الأديم، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يلخص لك نسبي» فأتاه حسان ثم رجع، فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: «إن روح القدس ما زال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» وقالت: سمعت رسول الله يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»[2].

ثالثاً ـ العلوم الإنسانية

تطلق كلمة العلوم الإنسانية ويراد بها العلوم ذات العلاقة بالإنسان من حيث حياته واتصالاته بغيره، وتربيته، وما يعتريه من أحوال نفسية وهي العلوم المعروفة بالتاريخ والمجتمع والتربية وعلم النفس والجغرافيا.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه مسلم.

وهذه العلوم عرف منها قديماً التاريخ والجغرافيا والتربية والاجتماع، وهي وإن كانت لم يطلق عليها هذه الأسماء، ولكن حقيقتها ومادتها كانت موجودة ويتعلمها الناس وإن لم يعرفوا لها هذه الأسماء.

وأما علم النفس فهو مادة جديدة في موضوعها كعلم له امتدادات متعددة وبحوث مختلفة، وقد يكون المسلمون عالجوه في ناحية معينة كالتربية والتعليم، ولكنهم لم يعرفوه بهذه الأساليب التي عرف بها في العصر الحديث.

عرف المسلمون علم التاريخ وأخبار الأمم السابقة، وكان لديهم فيه أوثق المصادر وأصدقها، فالقرآن الكريم تناوله بأسلوب أخاذ شوق النفوس، وحرك العواطف إلى معرفة أحوال الأمم التي تعرض لها، فقد تكلم عن آدم وحواء وبين بأسلوب رائع كيف خلق كل منهما، وتناول قصة الصراع الأبدي بين الإنسان والشيطان، وضرب المثل لاعتداء الإنسان وبغيه في قصة ابني آدم[1].

وتكلم عن نوح وما عاناه من قومه، وبين المدة التي مكثها فيهم، ثم أمره بصنع الفلك ونص على استهزائهم به وسخريتهم منه، وحكى قصة الطوفان، وذكر نجاة المؤمنين وهلاك الطغاة الكافرين[2].

وهكذا تناول قصة إبراهيم وهود وصالح ويوسف وموسى وعيسى، قص علينا ذلك كله بأسلوب لا يرقى إليه شك، خالياً من خيال الشعراء، متجرداً عن أوهام القصاص فوقف المسلمون على أحوال هذه الأمم وكأنهم يرونهم بأعينهم لدقة التصوير، وبراعة التعبير وبين للمسلمين الغاية الحقيقية من دراسة التاريخ.

إن الغاية الحقيقية من دراسة التاريخ هي اتخاذ العبرة، والاستفادة من تجارب السابقين ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾[3] والغاية

---

(١) راجع سورة البقرة والنساء والمائدة.
(٢) سورة هود.
(٣) يوسف: ١١١.

الحقيقية من دراسة التاريخ هي تثبيت المؤمنين على الحق الذي اعتنقوه، والاهتداء به للتمييز بين الحق والباطل ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1].

ليست دراسة التاريخ إذن للتسلية، ومن اتخذها كذلك فهو عابث، وليست دراسة التاريخ للاستمتاع بما فيه من ملح وطرائف ومن فعل ذلك فهو لاهٍ وإنما دراسة التاريخ تكون لما ذكرنا سابقاً، حتى نستطيع على ضوء هذه الدراسة الجادة النافعة أن نقف على أسباب نهوض الأمم وانحطاطها، ونعرف مصادر قوتها وضعفها، ونستفيد من تجاربها وخبراتها، وهذا كله هو ما وجهنا إليه القرآن الكريم وهو يقص علينا أحسن القصص.

ومن أجل الاستفادة بما في التاريخ من عبر، ومن أجل الوقوف على الحقائق التي لا بدّ من معرفتها لتجنب الأخطاء، وعدم الوقوع فيها أباح الرسول ـ ﷺ ـ للمسلمين أن يحدثوا عن بني إسرائيل، ورفع الحرج عنهم في التحديث بما يستفيد منه الناس ما يعينهم على الحق، ويهديهم إلى وسائل الشجاعة والبأس، ويستعينون به على معرفة أحوال الأمم السابقة بما كان عليه أهلها من الخير ويجتنبوا ما وقعوا فيه من الشر.

قال ـ ﷺ ـ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[2].

ومن المعلوم أن التحديث عن بني إسرائيل لن يكون في نقل أحكام شرعية ففي ديننا غناء ومتسع، ولكنه سيكون في أخبار السالفين التي تنطوي على العبر والمواعظ المستحسنة وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحدث أصحابه عن بني إسرائيل وعن أصحاب عيسى وما جرى لهم مع أقوامهم، كحديث الأعمى والأقرع والأبرص[3]، وحديث أهل الرقيم[4] والرجل الذي قتل تسعة

---

(١) هود: ١٢٠.
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

وتسعين نفساً، ثم كمل المائة بالراهب الذي أفتاه بأنه لا توبة له[1] إلى غير ذلك من الأخبار التي فيها عبرة وعظة.

وأما علم الجغرافيا وهو المعروف عند المسلمين قديماً باسم التقويم أو تقويم البلدان فهو علم عرف في عهد الخلفاء الراشدين لما فتحت الفتوح، ودخل المسلمون بلاد الفرس والروم، حينئذٍ أمر الخلفاء قواد الجيوش أن يرفعوا إليهم التقارير بوصف البلاد التي فتحوها.

وقد كتب عمرو بن العاص تقريراً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصف فيه مصر، وقد جاء التقرير في غاية الفصاحة والدقة، حتى أن عمر ـ رضي الله عنه ـ لما قرأه قال: لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده[2].

وهذا نص التقرير:

مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغور، ورمل أعفر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان، تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عج عجيجه، وتعظمت أمواجه، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب، فإذا تكامل في زيادة نَكصَ على عقبه كأول ما بدا في شدته، وطمى في حدته فعندئذٍ يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف، سقاه من فوقه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فعند ذلك يدرُّ حلابه، ويغني ذبابه.

فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، وإذا هي زبرجدة خضراء. فتعالى الله الفعال لما يشاء.

الذي يصلح هذه البلاد وينميها، ويقر قاطنها فيها ألا يقبَلُ قول

---

(١) رواه مسلم.

(٢) النجوم الزاهرة (١/٣٣).

خسيسها في رئيسها، وألا يُستَأْدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله ـ تعالى ـ يوفق في المبتدأ والمآل[1].

والتقرير حسبما هو مذكور في النص يتناول الأمور الآتية:

أولاً : وصف عام لمصر، يبين نوع تربتها وزراعتها، وطولها وعرضها، وما فيها من جبال وأنهار وهو وصف مع إيجازه دقيق نرى من خلاله صورة واضحة للبلد الموصوف..

ثانياً : وضح أن نهر النيل هو مصدر الخصب لمصر، فهو يشقها، ويسير بين روابيها وأوديتها، وهو ميمون الغدوات، ومبارك الروحات، يجري بقدر معلوم، وبحساب مرقوم، فإذا جاء وقت الفيضان، ظهرت العيون، وجرت الينابيع، ولا يستطيع أحد أن يتصل بأحد إلا عن طريق القوارب والمراكب، ثم يأخذ في التناقص حتى يعود كما كان قبل الفيضان.

ثالثاً : وصف ما يقوم به السكان من فلاحة الأرض، فهم بعد تناقص الفيضان يخرجون ليحرثوا أرضهم، ويبذروا حبهم، ويتعهدوه حتى تنشق عنه الأرض فيسقيه الندى ويغذيه الثرى حتى تخرج ثمرته، ويزداد محصوله.

رابعاً : يرسم الخطة التي تصلح بها البلاد، ويستقيم بها حال العباد، ويستتب فيها نظام الحكم، فهو يرى ألا يقبل قول السفهاء في حكامها، وألا تحصل الضرائب والخراج إلا في وقتها، وأن ينفق ثلث ما يتحصل منها على إنشاء الجسور، وشق الترع، والاهتمام بالزراعة لأنها هي المورد الرئيسي والطبيعي للبلاد.

خامساً : يوصي التقرير بمتابعة هذه الخطة والمحافظة عليها، ويشير إلى أن

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٣٢ ـ ٣٣) والنص هنا منقول عن التراتيب الإدارية.

ذلك يؤدي إلى مضاعفة الدخل، وإنعاش اقتصاد البلاد فيعيش الناس في رخاء، ويستتب النظام.

ولقد أدهش هذا التقرير ببلاغته ودقته أمير المؤمنين فقال كلمته التي أشرت إليها من قبل: لله درك يا ابن العاص، لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده.

وكذلك أعجب به الكاتب الفرنساوي (أكتاف أوزان)، وترجمه إلى عدة لغات، ونشره في جريدة الفيجارو الفرنسوية، ووصفه بأنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم.

واقترح وجوب تدريسه في كل مدارس العالم حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير، صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.

ولا شك أن اقتراح الكاتب الفرنسي، دليل واضح على أن العرب المسلمين كانوا أساتذة الغرب في هذه العلوم ـ علوم تنظيم الممالك وسياسة الأمم ـ حيث دعاهم إلى أن يتعلموا من تقرير عمرو ـ رضي الله عنه ـ ويعلموا أبناءهم ما يفيدهم ويستطيعون به تنظيم الأمم وسياسة الدول.

وإلى جانب هذه الإشادة بخطاب عمرو إلى أمير المؤمنين، وما فيه من وصف دقيق وماله من تأثير عميق، وإلى جانب دعوة العالم لأن يتعلم من الرسالة ما فيها من توجيهات سياسية واقتصادية، إلى جانب ذلك تقوم دعوة معاكسة للتشكيك في هذا التقرير ونفي نسبته إلى عمر بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

ويعتمد النافون للتقرير على أدلة أخذوها من نفس التقرير، فهم يزعمون أن هذا الأسلوب الرشيق لم يكن معروفاً في هذا العصر، هذا زيادة على ما فيه من المحسنات البديعية التي لم تعرف إلا بعد ذلك بقرون.

---

(١) التراتيب (٢/٢٦٧).

وهذه حجة وجيهة لها قيمتها، وبخاصة لدى نقاد الأدب، فهم يقولون أن هذا الأسلوب في الكتابة لم يعرف إلا بعد عصر الراشدين بدهر طويل، ويؤيد الأستاذ محمد حسين هيكل هذا النقد، ويدعوا إلى تأييده حين يقول: ولعل القارىء يشارك أصحابها ـ يعني أصحاب فكرة النفي ـ في رأيهم متى اطلع في بقية هذا الفصل على الكتب التي تبودلت بين الخليفة وابن العاص خاصة بالجزية والخراج[1].

على أن الأستاذ هيكل حين ينفي نسبة الكتاب إلى عمر بن العاص إنما ينفي نسبة الألفاظ والأسلوب فقط دون المعنى، فهو يثبت المعنى، ويصر على إثباته بطريقة تجعل القارىء يحسّ باهتمامه وحرصه على إثبات المعنى لعمرو بن العاص.

يقول الأستاذ هيكل: لكن هذه الحجة إن نفت نسبة ألفاظ الكتاب إلى عمرو، فهي لا تنفي أنه كتب إلى الخليفة يصف مصر، فحرص الخليفة على معرفة مصر وصفتها لم يكن أقل من حرصه على معرفة القادسية وما يحيط بها، والعراق وسدوده ومدنه.

وأكبر ظننا أن عمراً كتب هذا الوصف بأسلوبه هو، وأنه بلغ غاية الدقة فيه ثم تناوله أديب متأخر فصاغه في هذا الأسلوب الذي أثبته المؤرخون، وأثبتناه هنا[2].

والحقيقة أن القلب يميل إلى نفي نسبة هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ لا لأن أسلوبه الرشيق وما فيه من المحسنات لم تعرف في الكتابة في ذلك العصر، فكثير من كلام العرب وشعرهم عرفت فيه هذه الرشاقة، وأجمل منها، وظهرت فيه المحسنات بأروع من ذلك، وهل عرف أصحاب هذا الفن المحسنات إلا من كلام العرب واستعمالاتهم لها؟، كل الذي انفردوا به هو تسمية هذه المحسنات بأسمائها من سجع وجناس وتورية إلى غير ذلك.

---

(١) الفاروق عمر (٢/١٦٥).

(٢) نفسه.

وفوق ذلك فإن عمرو بن العاص كان معروفاً بالبلاغة في الكلام، وقوة الحجة والبيان حتى أن عمرَ بن لخطاب كان إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه يقول: أشهد أن خالق هذا، وخالق عمرو بن العاص واحداً[1].

ولهذا فإن رشاقة الكتاب واشتماله على كثير من المحسنات لا يكفي لنفي نسبته عن عمرو بن العاص.

وكذلك ليس أسلوب الخطابات المتبادلة بين عمرو وعمر ـ رضي الله عنهما ـ كافياً في نفي الكتاب، لأن الخطابات والكتب المتبادلة بينهما تعتبر خطابات رسمية تحتاج في صياغتها إلى الأسلوب الموجز المفيد، وليست في حاجة إلى التنسيق والتزويق، وأما رسالتنا هذه فهي في الوصف، وموضوعها يستدعي هذا الأسلوب الأنيق، ويستوجب الأسباب والتشويق حتى يبدو الموصوف للقارىء، كأنه يشاهده على التحقيق؟.

وإني لهذا لا أستطيع أن أقنع نفسي بزيف الكتاب، وتزويره على عمرو بن العاص ولئن كان الأستاذ هيكل قد نفى نسبة الألفاظ إلى عمرو، وأثبت له المعنى بغلبة الظن، فإني لا أوافق على ذلك أيضاً، لأن سؤالاً في تلك الحال يلح على من يقول بذلك، ولا يرضى إلا بإجابة صريحة، فأين إذن الأصل الذي كتبه عمرو؟؟.

والفيصل في مثل تلك الحال هو مصادرنا التاريخية الموثوقة التي كتبت عن فتح مصر وكأنها كانت ترافق الفاتحين خطوة خطوة، والتي نقلت بأمانة الكتب المتبادلة بين أمير المؤمنين ووالية على مصر دون أن تهمل شيئاً منها رغم ما فيها من قسوة عمر على عمرو ورغم ما فيها من رد عمرو بنفس اللهجة والقسوة.

وبالرجوع إلى تلك المصادر لم نجد شيئاً منها يشير ولو من طرف خفيّ إلى هذا الكتاب ولا إلى أصله الذي غلّب الأستاذ هيكل وجوده، وإذا

---

(١) الإصابة (٢/٣).

كانت جميع مصادر التاريخ الإسلامي لم تعرف هذا الكتاب، ولم يذكره إلا مؤرخون متأخرون، فلا بدّ أن يكون الكتاب مزيفاً على عمرو، ولم تصح نسبته إليه.

وهذا هو الطريق الوحيد الذي تطمئن إليه النفس، ويرضى عنه المحقق، والذي نستطيع به إثبات زيف الكتاب، ونفي نسبته إلى عمرو.

ولقد أثبت الكتاب هنا رغم ما فيه وما عليه لأناقشه هذه المناقشة، وأبين وجهة نظري فيه، وإنما يكفينا في الموضوع ما كان يأمر به عمر ـ رضي الله عنه ـ قواده وولاته من ارتياد الأماكن الصالحة لسكني الجنود، وألا يجعلوا بينه وبين المسلمين بحراً ولا جسراً يحول بينهم وبين المدد إذا احتاجوا إليه.

كتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يقول: (إن العرب لا يوافقها إلى ما وافق إبلها من البلدان، فابعث رائداً يرتاد لهم منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر)[1].

كذلك لما كتب عتبة بن غزوان إلى عمر يخبره بأنه لا بدّ للمسلمين من منزل يشتون به إذا اشتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم، فكتب إليه عمر. (إجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريباً من الماء والرعي، واكتب لي بصفته، فكتب إليه عتبة، إني وجدت أرضاً كثيراً القصبة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء. فأمره عمر بأن ينزلها الناس، فأنزلهم إياها)[2].

وعندما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ الاسكندرية مقراً لولايته كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فسأل عمر رسول عمرو، هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، عندئذٍ كتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص (إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء)[3].

(١) البلاذري ص: ٢٧٥، ابن الأثير (٢/٥٢٧) والطبري (٤/٤١).
(٢) البلاذري ص: ٣٤١، الطبري (٤/٤١)، وابن الأثير (٢/٥٢٧).
(٣) فتوح مصر ص: (١٣٢).

ونحن نرى في أوامر عمر بن الخطاب إلى القواد والولاة توجيهات تصلح نواة جيدة وبذرة صالحة لعلم الجغرافيا، فإنه في التوجيه الأول يجعل المناخ أساساً وصِفَة رئيسية للمكان الذي يرتاده القائد ليسكن فيه الجند.

وفي التوجيه الثاني يشترط قرب الماء ووجود المرعى، ويطلب من القائد تقريراً وافياً عن المكان فيوافيه بالتقرير، يصف له المكان بأنه كثير القصبة أي النبات الذي يصلح للرعي وأنه ذو مناخ جاف حيث يقع في طرف البر ـ الصحراء ـ إلى الريف، وأمام هذا المكان نهر فيه منبت القصب.

والتقرير كما نرى يتناول الوضع الصحي، ووسائل العيش للسكان ومواشيهم والمناخ ويبين صلاحية المكان للسكنى، ولذلك وافق عمر على نزول المسلمين فيه.

ويلاحظ كذلك أن من كان يهتم بجغرافية المكان. وموافقته لمزاج السكان وصلاحيته لإمداد القواد بما يحتاجون إليه من المدد.

وأما علوم التربية والاجتماع فللإسلام فيهما منهج رشيد، تناولهُ القرآن بالتفصيل والتوضيح، وعامل الرسول به أصحابه فكان التطبيق العملي لهذا المنهج، وقد تنوعت أساليب التربية وبناء المجتمع بحسب الأشخاص والبيئة والظروف التي تحيط بالإنسان.

فالقرآن الكريم يطالب الناس ببناء مجتمع نظيف فيأمرهم بمكارم الأخلاق ومحامد الشيم ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1].

ويحث أفراد هذا المجتمع على التعاون والبر ﴿وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[2].

ويهدد الذين لا يبذلون المعروف، ويمسكون الفضل ولو كان قليلاً

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) المائدة: ٢.

﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾[1].

ويحرص على خدمة البيئة، ويدعو المسلمين إليها، ويجعلها شعبة من شعب الإيمان يقول ـ ﷺ ـ «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[2].

ويجعل الجنة جزاء لمن يحرص على نظافة البيئة وسلامة الناس من الأذى، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»[3].

وعن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا نبيّ الله، علمني شيئاً انتفع به، قال: (اعزل الأذى عن طريق المسلمين)[4].

وبهذه الكلمات والقواعد العامة يضع الإسلام أسس علم الاجتماع، ويدع تفصيل ذلك للعلماء في كل جيل وفي كل مكان.

وقد وضع الإسلام قواعد لتربية الأفراد تشمل جوانب الإنسان المختلفة من عقل وجسم وروح، ووازن بين هذه الجوانب في التربية مخافة أن يطغى شيء منها على شيء فيصاب الإنسان بخلل ترتع منه حياته، وتهتز بسببه مشاعره وأحاسيسه، فينحرف في سلوكه وميوله، ويصبح مخرباً، وعضواً فاسداً في مجتمعه الذي يعيش فيه.

ومن ثم لا يفصل ـ الإسلام ـ في داخل النفس بين الجسم والعقل والروح، ولا يفصل في واقع الحياة بين هذه الطاقات، بل يأخذها بفطرتها السوية، ممتزجة مترابطة، ويرسم لها دستورها على هذا الأساس.

---

(١) الماعون: ٤ ـ ٧.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

الروح والعقل والجسم كلها كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان.

والروح والعقل والجسم كلها تعمل ممتزجة مترابطة في واقع الحياة.

ولقد يغلب أحد جوانب الكيان في لحظة، وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر، ولكنها لا تنفصل قط، وإلا فإنها تموت[1].

والقرآن الكريم قد منح كل جانب من هذه الجوانب ما يجعله به قادراً على أداء. وظيفته التربوية فحث العقل على التفكر والنظر والتدبر في آيات الكون ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾[2].

﴿ إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾[3] ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[4].

وبقدر هذا الاهتمام بالعقل كان اهتمام القرآن بالروح، ففرض على الإنسان عبادات توصله بربه، وتلحقه بالملأ الأعلى ويجملها القرآن الكريم في آية واحدة ﴿ أتل ما أوحيَ إليك من الكتاب، وأقم الصلاة وإن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون ﴾[5].

ولا تقل عناية القرآن بجسم الإنسان عنها بعنايته بعقله وروحه، فقد حرم على الإنسان كل ما يضر بجسمه وصحته أو يضعف من قدرته وقوته، فحرم عليه الزنا ﴿ ولا تقربوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[6].

وحرم عليه الخمر وكل ما يفتر الجسم ويخدره ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[7].

---

(١) منهج التربية الإسلامية ص ٢٦.
(٢) يونس: ١٠١.
(٣) آل عمران: ١٩٠.
(٤) الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.
(٥) العنكبوت: ٤٥.
(٦) الإسراء.
(٧) المائدة: ٩٠.

والرسول ـ ﷺ ـ يبين فضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف، ويحث على اتباع الوسائل التي تحصل قوة الجسم كالفروسية والسباق في الجري والرمي والمصارعة(١).

وللعناية بتكوين هذه الجوانب المختلفة في الإنسان وتهذيبها نوَّع الأساليب، وخالف بين الوسائل ليعطي كل فرد القدر الذي يحتاج إليه ويستفيد منه.

يقول الأستاذ محمد قطب: إنه ـ الإسلام ـ يربي بالقدوة، ويربي بالموعظة، ويربي بالقصة، ويربي بالعادة، ويربي بالأحداث، ويربي بالعقوبة.

كل لون من هذه الألوان ينفذ إلى النفس من أحد نوافذها، ويلعب على بعض أوتارها، حتى يغادر الإنسان في النهاية ولم يبق منفذ واحد لم ينفذ إليه ولا وتر واحد يوقع عليه، ولا جانب ولا اتجاه(٢).

نماذج من وسائل التربية الإسلامية

١ ـ التربية بالقدوة:

أمرنا الله ـ سبحانه ـ أن نتخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة لنا نتأسى به في كل أحوالنا: في الأخلاق والفضائل، في الصبر والشجاعة، في الرضا والقناعة، في الزهد والكرم، في التبتل والطاعة، في التحمل والسماحة إلى غير ذلك من الصفات الحميدة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً﴾(٣).

٢ ـ التربية بالموعظة:

وللقرآن لمسات وجدانية، يحرك بها في الإنسان عواطفه الذاتية،

---

(١) انظر ذلك بالتفصيل في كتابنا القيادة والجندية.
(٢) منهج التربية إسلامية ص ٢٢١.
(٣) الأحزاب: ٢١.

فيثيرها لعمل الخير، ويوجهها لأعمال البر، ويهز بها مشاعره وأحاسيسه، فإذا هو بكليته منقاد للتوجيهات، مطواع للموعظة.

والقرآن الذي هو كلام الله ـ عز وجل ـ الذي خلق النفس البشرية، ويعلم أسرارها وميولها أقدر على هذا التوجيه من أي كتاب آخر، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم، ووصينا الإنسان بوالديه: حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أنِ اشكر لي ولوالديك، إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها، وصاحبهما في الدنيا معروفا، واتبع سبيل من أناب إليَّ، ثم إليَّ مرجعكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون. يا بني، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعِّر خدك للناس، ولا تمشِ في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيكَ، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[1].

٣ ـ التربية بالقصة:

وهذا النوع من وسائل التربية من أقوى المؤثرات في النفس، وعلماء التربية في العصر الحديث يعتمدون على القصة في التربية أكثر مما يعتمدون على الوسائل الأخرى، إذ هي بأسلوبها الأخاذ، وعرضها المشوق، وسحرها الذي يستولي على النفوس، فيصير القارىء وكأنه فرد من أفراد تلك القصة، فيدافع عن موقف معين أو يبغض موقفاً آخر، أو يبدي إعجابه ويتحيز لوجهة نظر في الموضوع وهكذا.

إن القصة بكل مميزاتها وخصائصها موجودة في القرآن الكريم، قصص الأنبياء مع أممهم وهي تصور واقعاً حقيقياً بأشخاصه وأماكنه وأحداثه، وتبرز

---

(١) لقمان: ١٣ ـ ١٩.

مكان العبرة وتوجه إليه، فيظل الإنسان وهو يتلوها متابعاً لأحداثها، متوقعاً لنتائجها، وتظل صورها عالقة في ذهنه فلا تفارقه إلا وقد تركت أثرها في نفسه توجهه إلى حيث أريد بها.

وهناك قصص آخر يعرض نماذج لحالات إنسانية سواء وقعت أو يحتمل أن تقع وهي لا تخلو من خصائص القصة فتوجه إلى الخير وتحذر من الشر، وتقع في النفس موقعها الموجه المؤثر.

والقرآن الكريم مملوء بالقصص من النوعين السابقين ليملأ حياة الإنسان، ويأخذ بيده إلى طريق التربية الصحيحة، يقول الأستاذ محمد قطب:

والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة، والتربية بالموعظة، فهي سجل حافل لجميع التوجيهات[1].

والله ـ عز وجل ـ يقول لنبيه: ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[2].

٤ ـ التربية بالعادة:

العادة ما يعتاده الإنسان أي ما يكرر عمله مرة بعد مرة وقد يكون ذلك موروثاً عن البيئة أو عن المربين أو الأصدقاء.

والعادة قد تكون حسنة مقبولة كإكرام الضيف، وحماية الجار، والدفاع عن العرض، وقد تكون سيئة قبيحة كشرب الخمر، ووأد البنات، ولعب الميسر.

والإسلام قد استعمل كلا الصنفين كوسيلة للتربية، فأما العادات

---

(١) منهج التربية الإسلامية ص ٢٣٩.
(٢) هود: ١٢٠.

الحسنة فمدحها وحث عليها، وأظهر فوائدها للمجتمع، وثمرتها لنفس صاحبها، ونحن نسمع الرسول ـ ﷺ ـ يمدح الصدق كعادة، ويرفع من شأن الأمانة حتى يجعلها دليل الإيمان، ويجعل إكرام الضيف من علامات الإيمان، ويبين أن الصبر نصف الإيمان والقرآن الكريم يثني على الصادقين، ويأمر بالصبر، ويحضُّ على أداءِ الأمانات.

وبهذا التركيز على هذه العادات الحسنة وإظهارها في تلك الصور الممدوحة المحببة يثبت تلك العادات في نفوس المسلمين، ويربيهم عليها فينشأ مجتمع فاضل ونظيف.

وأما العادات السيئة فيبرزها في صورة بشعة دنيئة، ويقبحها ويركز على إبراز جوانب الشر والقبح وينفر منها تنفيراً يجعل النفوس تشمئز من سماعها وتبغض المتصفين بها، وكان ذلك واضحاً عندما تناول القرآن ذكر الخمر ووأد البنات وما يعود على المجتمع من أضرار الميسر إلى غير ذلك من العادات السيئة.

ولا تكاد النفس السوية تتراءى لها تلك الصور القبيحة البشعة حتى تقلع عن تلك العادات، وتحاول التخلص منها بشتى الوسائل والطرق، حيث ترى فيها تشويهاً للصورة الإنسانية الوضيئة التي فطر الله الناس عليها.

وفي هذا الحديث نموذج للترغيب في العادات الحسنة والترهيب من العادات القبيحة بأسلوب شيِّق الغاية، ويوصل إلى المطلوب، قال ـ ﷺ ـ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً.

وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً»[1].

والقرآن الكريم يمدح العادات الحسنة يقول ـ تعالى ـ: ﴿ إن الله

(١) رواه مسلم.

يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به ﴾[1].

ويذم العادات السيئة ويقبحها، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ ولا تقربوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[2].

وبتناول العادات على هذا النحو تتأصل في الإنسان العادات الصالحة النافعة، ويتخلص من السيء القبيح منها.

٥ ـ التربية بالأحداث:

يقول بعض الحكماء: تمر علينا الحوادث سراعاً والعاقل من وعى منها العبر، والأحداث في الحقيقة هي أوعية التاريخ، وهي الظروف التي تمر بها أجيال متتابعة من البشر، يشعر فيها المتأخرون بنفس شعور المتقدمين وحينئذٍ يحسون بآلامهم، ويقدرون ظروفهم، فيغبطونهم على ما كانوا فيه من خير، ويتألمون لما مسهم من الشر.

وهنا تنفعل النفوس بتلك الأحداث، فتتحمس للمظلومين، وتحقد على الظالمين وهذه الأحداث كثيراً ما تكون سبباً من أسباب التجميع والتكتل، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

فإن يكن الجنس يا ابن الطلح فرقنا إن المصائب تجمعن المصابينا

وأكثر من ذلك أن تلك الأحداث عوامل للصمود والثبات والتحدي والاستعلاء، وهنا يبرز دور المربي الماهر، حيث يستغل تلك الأحداث في تطوير هذه الصفات، ويجعلها لوازم لمن يمرون بأمثال هذه الأحداث.

ولقد قام القرآن الكريم بهذا الدور خير قيام كما قام به رسول الله ـ ﷺ ـ فالقرآن الكريم يقص علينا مواقف الأمم السابقة من رسلها، ثم يبين الأحداث التي نزلت بهم نتيجة لتلك المواقف، فيهدد بذلك المعاندين،

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) الإسراء: ٣٢.

ويثبت قلوب المؤمنين، ويحرص على التزام الحق، ويحذر من الميل إلى أهل الغي، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله، فحاسبناها حساباً شديداً، وعذبناها عذاباً نكراً، فذاقت وبال أمرها، وكانت عاقبة أمرها خسراً. أعد الله لهم عذاباً شديداً، فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا، قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾[1].

وبعد أن يذكر ـ سبحانه ـ مواقف بعض الأمم من أنبيائهم، ويلهب عواطف المستمعين إلى معرفة عاقبة أمرهم، يقص ـ جل شأنه ـ ألوان العذاب الذي حاق بهم، ويعدد أنواعه ردعاً لمن يحاول السير على نهجهم، وتذكيراً للمؤمنين بنصر الله لهم، فيقول ـ عز من قائل ـ: ﴿ فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2].

ومن جانب آخر يوضح ـ جل شأنه ـ ثبات أهل الحق على حقهم مهما توالت عليهم المحن، ويذكر المؤمنين بالمواقف البطولية التي وقفها أتباع الرسل السابقين إلى جوار أنبيائهم في صبر على المحنة، وثبات على الحق، واستعلاء على الباطل ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وأنصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين ﴾[3].

وهكذا نرى القرآن عندما يعمد إلى تربية المؤمنين عن طريق الأحداث، يراوح بين الوعد والوعيد، وينوع الأسلوب بين الترغيب والتهديد،

---

(١) الطلاق: ٨ ـ ١٠.
(٢) العنكبوت: ٤٠.
(٣) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨.

فتستيقظ القلوب الغافلة، وتطمئن النفوس المؤمنة، وتبرز الأحداث في صور ماثلة حية تقرع القلوب بهولها، وتهز النفوس بلأوائها، في الوقت الذي تمسح فيه قلوب المؤمنين برفق، وتحرك عواطفهم في لطف ليتمسكوا بالحق الذي جاءهم به الرسل، فيوقنوا عندئذٍ أن العاقبة للمتقين.

والرسول ـ ﷺ ـ يستغل الأحداث أحسن استغلال في تربية المؤمنين، فيهدىء نفوسهم كلما جاشت، ويطمئن قلوبهم كلما ثارت، ويضرب لهم الأمثال بمن سبقهم من الأمم، جاء خباب بن الإرث إلى رسول الله وهو عند الكعبة، فقال خباب للرسول: ألا تدعو لنا؟.

فاحمر وجه الرسول ـ ﷺ ـ وقال: «إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه»[1].

وجلس الرسول ـ ﷺ ـ يعلم أصحابه أموراً، فكان مما قال: ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء مضلون يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم، قالوا: ما نصنع يا رسول الله؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى، نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، والذي نفس محمد بيده لموت في سبيل الله، خير من حياة في معصية الله)[2].

وهكذا يوجه الرسول أصحابه من خلال هذه الأحداث، فيذكرهم بما تحمله المسلمون الأولون من الأذى والعذاب في سبيل عقيدتهم، وما بذلوه من التضحية والثبات من أجل نصرة دينهم، ولم يصرفهم شيء من ذلك عن الحق الذي آمنوا به.

فيزيدهم بذلك تمسكاً بدينهم، وحرصاً على عقيدتهم، فإن من قبلهم

---

(١) حياة سيد العرب (١/١٣٣).

(٢) رواه أبو داود.

قد نالهم أكثر مما أصابهم فصبروا ولم يغيروا، وهم ليسوا بأقل منهم إيماناً، ولا أضعف منهم بنياناً.

٦ ـ التربية بالعقوبة:

لا يختلف إثنان في أن الناس ليسوا سواء فيما يصلحهم في التربية والتوجيه، فمنهم من تكفيه القدوة يراها في والديه أو أستاذه أو أصدقائه، ومنهم من تؤثر فيه الموعظة فتكون سبباً في تحويله وإرشاده، ومنهم من ترده قصة عن غيه، وتعيده الأحداث إلى رشده، وهناك فريق أذنه في ظهره لا يسمع إلا حيث يضرب، وعقله في رجله لا يفهم إلا بعد أن يجلد.

ولعل هذا الاختلاف الحادث في وسائل التربية التي اتبعها القرآن المجيد في تربية الناس كان من أجل هذا، حتى يسلك مع كل أناس ما يصلحهم ويفيدهم.

ومع هذا فإن المتبادر إلى الذهن أن المربي لا يبلغ حد العقوبة إلا إذا استنفد الوسائل الأخرى دون أن يجد فائدة أو يحصل على جدوى، وعندئذٍ فليس هناك سبيل إلا استخدام تلك الوسيلة.

ولهذا جعلها القرآن الكريم آخر وسائل التهذيب والتقويم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظونهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ﴾[1].

والرسول ـ ﷺ ـ جعل العقوبة آخر الدواء، قال ـ ﷺ ـ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر»[2].

ومن المعلوم أن العقوبة لا تنحصر في الضرب، ولكن يدخل فيها التهديد والحرمان، والمربي الحاذق لا يستخدم العقوبة إلا إذا فشلت مقدماتها من التهديد والحرمان.

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) رواه أحمد في المسند.

والناس في نظر المربي كالمرضى أمام الطبيب، فهذا ينفعه التوجيه المعنوي، وهذا يصلحه الدواء، ولا بدّ أن يستعمله ولو كان مراً، وذلك لا يفيده إلا البتر.

ولا يستطيع أحد أن يعترض على الطبيب لأنه أرشد هذا فصح، وبتر هذا ليصح، لم لم يستعمل الطبيب علاجاً واحداً مع المريضين، ولو فعل ذلك لعابه الناس وأنقصوه والواقع أن من الناس ناساً لا يجدي معهم غير العقوبة، والتساهل معهم يؤدي إلى المزيد من الانحرافات، فهؤلاء لا يصلح معهم إلا العقوبة الرادعة، ولا تكون إلا بعد استنفاد الوسائل الأخرى، وآخر الدواء الكي كما كانوا يقولون.

وعندما يستعمل الإسلام هذه الوسائل على اختلاف أنواعها يكون قد سلك الطريق إلى النفس البشرية بكل ما يوصل إليها، وقد دخل عليها من كل منافذها فلم يدع لها مهرباً إلا أغلقه، عندئذٍ تنصاع للتوجيه، وتنقاد للنصح، ويسلس قيادها للتربية.

رابعاً ـ علوم الطب والتمريض

لم يكن الطب علماً مقنناً ـ دروساً كما هو الحال في أيامنا ـ ولكنه كان مأخوذاً بالتجربة، وكان الأطباء يسألون عما يشعر به المريض، ويصفون له الأدوية المناسبة التي أفادت غيره ممن كان يشكو هذه الشكوى.

يدل على ذلك قول عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ لما سألها عروة بن الزبير عن سبب علمها بالطب قالت: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كثرت أسقامه، وكان يقدم عليه أطباء العرب والعجم فيصفون له فنعالجه)[1].

ويروي ابن الجوزي عن هشام قال: كان عروة يقول لعائشة: لا أعجب من فقهك أقول: زوجة رسول الله ـ ﷺ ـ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر ولكن أعجب من علمك بالطب.

---

(١) التراتيب (١/٤٥٥).

فقالت: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان سقيماً في آخر عمره، فكانت تقدُم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت الأنعات، فكنت أعالجها، فمن ثم[1].

وهاتان الروايتان تؤكدان أن الطب كان يتعلم بالممارسة، وهكذا تعلمته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حتى أتقنته، وفيهايقول هشام بن عروة ـ رحمهما الله ـ: (ما رأيت أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة)[2].

ولكثرة ما كان يوصف لرسول الله ـ ﷺ ـ من الأدوية والعلاجات أصبحت ولديها خبرة بالطب، وقد عقد العلماء أبواباً في كتبهم لطبه ـ ﷺ ـ سواء كان ذلك في كتب السنة كما في البخاري ومسلم وأبي داود وغيرها، أو كان في الكتب المؤلفة في سيرته ـ ﷺ ـ كالمواهب اللدنية، والهدى النبوي وغيرهما، كما أفرد بعض العلماء كتباً خاصة بطبه كالذهبي والسويطي.

يقول ابن حجر: والطب نوعان: طب جسد وهو المراد هنا، وطب قلب ومعالجته خاصة بما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ وأما طب الجسد فيه المنقول عنه ـ ﷺ ـ ومنه ما جاء عن غيره، وغالبه راجع إلى التجربة[3].

وكان ـ ﷺ ـ يأمر بالتداوي فيقول: «إن الله جعل لكل داء دواء فتداووا»[4].

ونبه إلى أصول العلاج بقوله: الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار وأنهي أمتي عن الكي[5].

ووصف علاج بعض الأمراض مثل الحمى المعروفة الآن بضربة

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى (٢/٣٤١).
(٢) الاستيعاب (٤/٣٥٨) والإصابة (٤/٣٦٠).
(٣) فتح الباري (١٠/١٣٤).
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه البخاري.

الشمس، قال ـ ﷺ ـ: «الحمى من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء»[1].

ووضع قاعدة الحجر الصحي حيث قال: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[2].

وأمر بعدم مخالطة ذوي الأمراض المعدية، حتى لا تنتقل الأمراض إلى الأصحاء فقال: «وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»[3].

وأشار إلى أن الحمية هي الأصل الذي يجب أن يسير عليه المسلم حين يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بدّ فاعلاً: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[4].

وهذه الأحاديث الشريفة في مجموعها تعطي القواعد الكلية لعلم الطب، فإنه ـ ﷺ ـ أمر بالتداوي، وحثّ عليه، وبين أنواع العلاج بحسب اختلاف الأمراض، فبعضها وهو ما يعرف بالأمراض الباطنية يعالج بالأدوية، وأشار إليها بشربة العسل وبعضها يحتاج إلى عمليات جراحية وأشار إليه بشرطة المحجم، وبعضها أمراض عصبية أو مستعصية تحتاج إلى جلسات كهربائية مثلاً وأشار إليها بكَية النار.

ثم أنه ـ ﷺ ـ بين أن هناك أمراض معدية فنهى عن مخالطة المريض بها، وأمر بالحجر الصحي عند ظهور الأمراض الوبائية، وأخيراً بين لنا كيف نتناول الطعام حتى لا نتعرض لما يترتب على كثرته من التخمة والأمراض الفتاكة.

ولم يقتصر طبه ـ ﷺ ـ على العلاجات المادية فكان يوصي بالعلاج النفسي، قال ـ ﷺ ـ: «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيب نفس المريض»[5].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه ابن ماجة في سننه.

والعلاج النفسي من أبرع أنواع العلاج، ومن أقواها على مقاومة العلل، فإن المريض إذا قويت نفسه، وارتفعت معنوياته تغلب على كثير من الآلام التي يعانيها وساعده ذلك على التخلص من آثارها.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وفي هذا الحديث نوع شريف جداً من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة وتنتعش به القوة وينبعث به الحار الغريزي، فيساعد على دفع العلة، أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب.

وتفريح نفس المريض ـ وتطبيب قلبه، وإدخال ما يسره عليه له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك فتساعد الطبيعة على دفع ما يؤذي[1].

ولهذا كان ـ ﷺ ـ إذا عاد مريضاً وضع يده على جبهته أو على صدره، وسأله عن شكواه، وعما يشتهيه، وربما قال له: «لا بأس عليك، طهور إن شاء الله»[2].

وأما التمريض فكثيراً ما كان يحصل في الحروب والغزوات، وكان يقوم به الرجال والنساء وأغلب ما يكون التمريض من النساء في أثناء المعارك، حيث يكون الرجال مشغولين بالحرب.

عن الربيع بنت مسعود ـ رضي الله عنهما ـ قالت: (كنا مع النبي ـ ﷺ ـ نسقي ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة)[3].

وفي البخاري لما أصيب سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في أكحله في يوم الخندق أمر رسول الله أن تضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب.

ويقول ابن إسحاق: إن الذي كان يقوم على تمريضه وعلاجه امرأة

---

(١) زاد المعاد (٣/٢١٣).
(٢) نفسه.
(٣) البخاري.

اسمها رفيدة من قبيلة أسلم، وكان لها خيمة في المسجد، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ويقول: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب[1].

وللبخاري في الأدب المفرد، لما أصيب أكحل سعد يوم الخندق، قيل حولوه عند امرأة يقال لها رفيدة كانت تداوي الجرحى.

يقول ابن حجر: وكذلك ذكرها البخاري في التاريخ عند قصة وفاة سعد بسند صحيح[2].

خامساً ـ العلوم العسكرية

ولما كان الله ـ عز وجل ـ قد فرض الجهاد على الأمة فإن تعلم ما يفيدهم في جهاد عدوهم يكون بالتالي واجباً، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولهذا فإن القرآن الكريم قد أمر باتخاذ العدة اللازمة لجهاد الأعداء، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط لخيل ﴾[3].

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول وهو على المنبر: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي[4].

وكان ـ ﷺ ـ يسابق بين أصحابه على الخيل والإبل وعلى الأرجل، وكان يحث على الرمي ويحذر من سنيانه، ويأمر بركوب الخيل، وقد فصلت ذلك كله عند الكلام على تدريب الجيش.

---

(١) ابن هشام (١٤٥/٣).
(٢) الإصابة (٣٠٣/٤).
(٣) الأنفال: ٨
(٤) رواه مسلم.

سادساً ـ علوم الأنساب والحساب والفرائض

وهناك آثار كثيرة تحث على تعلم هذه العلوم، وسواء صحت عن الرسول ـ ﷺ ـ أو عن الخلفاء الراشدين ـ فهي على كل حال حث على تعلم هذه العلوم، وهي دليل على حرص الصحابة على المحافظة عليها.

جاء في الأنساب: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم)[1] وكان أبو بكر الصديق، وأبو الجهم ابن حذيفة العدوى، وجبير بن مطعم من أعلم العرب بالأنساب.

وذكر الكتاني أن علم الأنساب في الحقيقة ليس عبارة عن نسب الأشخاص والقبائل فإن هذه معرفة بسيطة لا تستحق أن تسمى علماً، وإنما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الأشخاص، وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ[2].

وأما علم الحساب فكانوا مضطرين إليه لأنه لا يتم اتقان علم الفرائض المقصود به الميراث إلا به، حيث يوجد في المسألة السدس والثلث والربع والثمن، وإذا لم يكن صاحب الفرائض مجيداً للحساب فإنه يتعرض للخطأ.

ولقد حكوا عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل في مسألة في الفرائض فقال: سلوا عنها سعيد ابن جبير، فإنه يعلم عنها مثل ما أعلم، ولكنه أحسب مني[3].

وكذلك كان علم الفرائض من العلوم التي حث الرسول على تعلمها، وجمهور العلماء على أنه فرض كفاية، وروى عن عمر قال: (تعلموا الفرائض والإعراب والسنّن كما تعلمون القرآن).

وكان زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ من أعلم الصحابة بهذا العلم،

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) التراتيب الإدارية (٢/٣٠٣).
(٣) نفسه ص ٣١٠.

روى ابن سعد عن قبيصة قال: كان زيد رأساً بالمدينة في الفتوى والقضاء والقراءة والفرائض[1]، وقال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ «أفرضكم زيد»[2] وفي رواية «أفرض أمتي زيد بن ثابت»[3].

وهكذا كانت الحركة العلمية في المدينة المنوّرة في دولة الإسلام الأولى، نشأت صغيرة مع الدولة الناشئة، ثم نمت برعاية الإسلام لها وعناية الرسول ـ ﷺ ـ بها، شأنها في ذلك شأن كل شيء في بدايته، وتلك سنة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

ونحن لا نستطيع أن نغمط تلك الحركة حقها، ولا نستطيع أن نغمض أعيننا عما فيها من لفتات عرفتها الحركة العلمية الحديثة عن طريقها، فطرق التدريس التي استعملها الرسول ـ ﷺ ـ وعثر عليها صريحة في أثناء تعليمه لأصحابه هي طرق التدريس المستعملة الآن (الإلقائية ـ الحوارية ـ الاستنباطية).

ثم تقرير العطلة الأسبوعية، والعناية بتعليم النساء وتخصيص يوم لهن، وإرسال المعلمين إلى الجهات المختلفة لتعليم الناس، كل هذه لفتات كريمة وأسس وضعها الإسلام للحركة العلمية في عهد الرسول ـ ﷺ ـ.

فلما كان عهد الخلفاء، ساروا على درب نبيهم، وواصلوا تنشيط الحركة العلمية وبذلوا جهدهم في توسيعها، وبنوا الدور والمكاتب لتكون أماكن للتدريس.

وتحددت في عصرهم مناهج التعليم، واتسعت دائرة العلوم بحسب ما اقتضته ظروف الفتح وحاجة الدولة.

والحركة العلمية في الدولة الإسلامية الأولى مهما حاول المغرضون أن

---

(١) الطبقات (٢/ ٣٦٠).
(٢) رواه أحمد في المسند.
(٣) الاستيعاب (١/ ٥٥٣)، الطبقات (٢/ ٢٥٩).

يقللوا من شأنها تعتبر نموذجـاً رائعاً في عصرها الذي نشأت فيه، ونستطيع أن نسميها حركة علمية ونحن واثقون من صحة التسمية، حيث لم ينقصها شيء من سمات الحركة العلمية سواء المعاصرة لها أو المتأخرة عنها.

وإن القواعد الرئيسية التي اشتملت عليها تلك الحركة، هي نفسها القواعد الرئيسية المتسمة بها الحركات العلمية في كل عصر مع فوارق شكلية في تطوير الوسائل، وأماكن الدراسة، والكتب المنهجية كما يتضح ذلك من قراءة البحث.

الفصل الثالث

الفتنة تطل بقرنها

بين عمر وعثمان رضي الله عنهما

بين عمر وعثمان (رضي الله عنهما)

انتقل أمر المسلمين إلى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة عمر بن الخطاب، وأصبح عثمان أمير المؤمنين والقائم على أمور المسلمين، وفرح المسلمون بخلافة عثمان فرحاً عظيماً لما لمسوا فيه من لين الجانب، وكثرة الإحسان والحلم، واتخاذه التوسعة على المسلمين منهجاً يسير عليه.

والحق أن الناس قد ضاقوا بسياسة عمر ـ رضي الله عنه ـ التقشفية الشديدة التي كان يأخذ بها نفسه قبل أن يأخذ بها الرعية، وكانوا يرون أن في تلك السياسة تحجيراً عليهم في أمر قد وسعه الله لهم، وتضييقاً على المسلمين في وقت اكتظ فيه بيت المال بأنواع مختلفة من الدخل.

والذي لا شك فيه أن أيلولة الحكم إلى عثمان قد أحدث انقلاباً خطيراً في السياسة المالية والإدارية، بقدر ما كان بين الرجلين العظيمين من الفوارق الشخصية.

لقد كان عمر شديد الزهد كثير الورع عازفاً عن كل ما يحفل به الناس، في حياتهم من الملبس والمأكل والمشرب، وقد لاحظ عليه أولاده ذلك فكلمته السيدة حفصة أم المؤمنين وابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وقالا: لو أكلت طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق، فقال: أكلكم على هذا الرأي؟ قالوا: نعم، قال: قد علمت نصحكم، ولكني تركت صاحبَيَّ على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل[1].

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء ص: ١٢٨.

وكانت رعيته تشفق عليه لما ترى من حرمانه نفسه من طيبات أحلت له، حتى كلمه عتبة بـن فرقد في ذلك، فقال: ويحك آكل طيباتي في حياتي الدنيا، واستمتع بها[1]؟.

وبهذه الشدة التي أخذ بها عمر ـ رضي الله عنه ـ نفسه، أخذ بها رعيته حتى أقرب الناس إليه. قال محمد بن سيرين قدم صهر لعمر عليه، فطلب أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر، وقال: أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً[2].

ولم يكن ذلك التقشف خاصاً بطعامه بل تعدى ذلك إلى مظهره العام فقد كان يطوف على الناس في سوقهم وعلى كتفه الدرة ليؤدب العاصي منهم وعليه جبة من صوف مرقوعة بأدم رقعاً تبلغ أربعاً أو تزيد[3].

وكان ـ رضي الله عنه ـ يشترط على عماله ألا يظهر عليهم شي يوصي بالكبر أو يمنعهم من الاستماع إلى شكوى المسلمين، فإذا فعل العامل شيئاً من ذلك فقد حلت عليه العقوبة، وكان يحاسب عماله، فإذا ظهر لأحدهم شيء جديد من المال لم يكن عنده، أخذ منه نصفه، وترك له النصف الآخر[4].

هكذا كان عمر، وهكذا كانت سياسته المالية والإدارية، وكم من الناس يطيق ذلك أو يقدر عليه، والنفوس البشرية مطبوعة على حب المال، حريصة على جمعه، شغوفة باقتنائه والمباهات به وكلما وجدت السبيل إليه لم تقصر في تحصيله باذلة في سبيل ذلك كل جهد مقدور أو غير مقدور.

لم تكن مبالغة إذن عندما نقول: إن الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا التقشف الذي فرضه عمر عليهم فرضاً، وأجبرهم عليه طوعاً أو كرهاً، وبخاصة، وقد فتحت عليهم الدنيا أبوابها، فلماذا لم يستمتعوا بها حلالاً طيباً؟.

---

(١) نفسه.
(٢) نفسه ص: ١٣٠.
(٣) نفسه ص: ١٢٩.
(٤) السيوطي تاريخ الخلفاء ص: ١٢٨.

إن الحقيقة التي لا يماري فيها اثنان هي أنه لولا قوة عمر الشخصية، وهيبته في نفوس المسلمين، وأخذه نفسه وأهله بما كان يدعو إليه، ولولا أن المسلمين يعرفون من عمر صرامة لا تفل، وعزيمة لا تقهر، وإصراراً على تنفيذ ما وعد به أو توعد، ولولا أن عمر نفسه كان قادراً على أخذ الناس بما يأمر به، حريصاً على حملهم على طريقته، واثقاً من أنه يبغي مصلحتهم، لما استطاع أن يسير بالناس تلك السيرة التي لا يطيقها إلا أولوا العزم من الرجال.

ومع كل هذا أدرك عمر ـ رضي الله عنه ـ أن الناس أصبحوا لا يطيقون ذلك، وأن الأمر يوشك أن يفلت من يديه، وأن المسلمين صائرون لا محالة إلى أمر غير الذي هو عليه، فخشي أن يلقي الله مفرطاً أو مضيعاً، روى سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ قال: لما نفر عمر من منى أناخ بالأبطح ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط[1].

فلما كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ وهو الرجل الهين اللين الحليم الكريم، البار الرحيم، أملت عليه تلك الصفات التي فطر عليها منهجه مع رعيته، ورسمت له خطته في خلافته، فوجد المسلمون في عهده ما لم يجدوه في عهد سابقه، فانتقل الناس طفرة من خشونة العيش وشظفه، إلى لينه وطرائفه، ومن ضيق الحياة ولأوائها، إلى سعتها ونعمائها، ولأن الخليفة للناس، فظن بعض السفهاء والخفاف أن لينه ضعفاً وبدأ الشر يتسرب إلى تلك النفوس التي يفسدها التلطف، ويغريها بالشر الإحسان.

لم يكن عثمان ـ رضي الله عنه ـ يستطيع أن يكون غير ذلك، لأنه حينئذٍ يكلف نفسه شيئاً ليس من طباعها، إن حياءه الجم لا يمكنه أن يواجه مذنباً بذنبه، وبخاصة إذا كان الذنب في حقه هو، وأن لينه وتسامحه قد جراءا عليه ضعاف النفوس من الذين لم يستقر الإيمان بعد في قلوبهم.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص: ١٣٣.

لقد وسع عثمان كثيراً على المسلمين لأن هذه طبيعته حتى في ماله الخاص، أليس هو الذي جهز جيش العسرة، واشترى بئر رومة ليوسع به على المسلمين، وكان يعتق في كل جمعة رقبة إلى غير ذلك من الأمور العظيمة التي لم يستطع غيره القيام بها.

لقد كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يعتقد أن المال مال الله، وأن الخلق عيال الله، فماذا عليه لو وسع عليهم؟.

وكما خالف عثمان وجهة نظر عمر في التوسيع على المسلمين، والزيادة في أعطياتهم خالفه كذلك في النظام الإداري حيث كان يولي أقاربه على الولايات، ويجزل لهم العطاء.

كان عثمان يعتقد أن أقاربه وذوي رحمه أولى ببره ورعايته ما داموا أكفاء، ولا يقلون عن غيرهم في غنائهم وكفايتهم، وكان يعتقد أنه بتوليتهم أمور الدولة يصل رحمه، ويتقرب بذلك إلى الله ـ عز وجل ـ وقد كانوا أكفاء لما أسند إليهم من الأعمال، مخلصين له أكثر من غيرهم من الرجال.

ولو استثنينا ما ارتكبوا من أخطاء لم تؤثر في كفايتهم، ولكنها كانت تؤثر في سلوكهم لوجدناهم بحق أكفاء في كل ما أسند إليهم سواء في القيادة العسكرية، أو في الإدارة والسياسة فمروان بن الحكم صاحب سره وكاتبه، وعبد الله بن أبي سرح قائد معركة ذات الصواري التي انتصر فيها على الأسطول البيزنطي، والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي اهتم بسد الثغور، وأمعن في الفتح، وبلغ في ذلك غاية عرفت له، وتحدث بها الناس في حياته، وبعد موته[1] ثم كان سعيد ابن العاص، وهو فتى من فتيان بني أمية، معتدلاً مستقيم الخلق، أبلى فأحسن البلاء في فتوح الشام[2].

هؤلاء هم الذين ولّاهم عثمان من أقاربه، وكلهم كما رأينا أهل كفاية ونجدة، وشجاعة في الفتوح، وتدبير للأمور (وكان لهم بأس في الحرب،

---

(١) الفتنة الكبرى ص: ٩٤.

(٢) نفسه ص: ١٠١.

ونكاية في العدو، وحماية للثغور يقومون فيها مقام غيرهم)[1].

نعم إن عمر ـ رضي الله عنه ـ لم يحصر الأمر في قريش، ولم يختر عماله من أبنائها، ولكن عمال عمر كانوا من العرب عامة الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وبالنظر في عمال عمر نرى فيهم القرشي كعمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، والثقفي كسفيان بن عبد الله والي الطائف، وعثمان بن أبي العاص والي البحرين وما والاها، كما نرى منهم اليمني كأبي موسى الأشعري والكناني كعبد الرحمن بن علقمة والأنصاري كعمير ابن سعد.

ونحن في الحقيقة لا نرى بين هؤلاء العمال جميعاً شخصاً واحداً من عدي قبيلة عمر بن الخطاب، ولا أحداً ممن يمت له بصلة قريبة أو بعيدة.

وعثمان ـ رضي الله عنه ـ وإن خالف عمر في ذلك إلا أنه كان يعتقد أن تولية عمال من أقاربه يكون عوناً له على القيام بمهمته كخليفة للمسلمين، ولم يدر بخاطره محاباتهم ولا مجاملتهم، حيث كان يعتقد كفاءتهم، ولذلك لما تبين له خطأ ابن أبي معيط عزله وأقام عليه الحد[2].

ولكن عثمان لم يول بعد الوليد رجلاً من كبار الصحابة، ولا من السابقين إلى الإسلام، ولكنه ولى محمد بن العاص مكان الوليد بن عقبة، وهو رجل أموي كان يربيه عثمان ويعطف عليه.

ونحن إن نظرنا من باب آخر إلى من ولاهم عثمان نجدهم لا يزيدون على أربعة رجال من أقاربه وهم بالنسبة إلى تلك المربعة الفسيحة التي كان يسيطر عليها المسلمون في خلافة وبالنسبة لعدد العمال الذين بلغوا في عهد عمر أحد عشر عاملاً، ليسوا شيئاً مخيفاً يجعل المسلمين يحذرون منه ويتوقعون على أثره عواقب غير مأمونة.

---

(١) الأوائل ص: ١٥٨.

(٢) الفتنة الكبرى ص: ٩٥، الأوائل ص: ١٥٨.

ولكنا إذا نظرنا إلى المراكز الحساسة التي كانوا يتولون أمرها، والمناطق الهامة التي كانوا يديرونها ندرك مدى تخوف المسلمين، وسبب غضبهم لهذا العمل الذي لم يكن فيه الخليفة الثالث موافقاً لصاحبه من قبل.

فقد كان ابن أبي سرح والياً على مصر، والوليد بن عقبة ومن بعده سعيد بن العاص والياً على الكوفة، وكان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام ولكن لم يكن عثمان هو الذي ولّاه، إذ كان والياً عليها منذ عهد ابن الخطاب، وأقره عثمان، ولكنه على كل حال كان من أقاربه، كذلك كان عبد الله بن عامر بن كريز والياً على الكوفة.

وكانت الولايات الثلاث هي الثغور التي تطل على الأعداء من جهة، وتدر على الدولة الخيرات من جهة ثانية، كما كانت ميادين التوثب للزحف والتوسع في الفتح وانتشار الإسلام من جهة ثالثة.

من أجل هذا كان المسلمون يحسدون الولاة الثلاثة على مراكزهم التي حباهم الخليفة، لأنهم لم يكونوا في نظرهم أهلاً لها لتأخرهم في الإسلام، ولعداوتهم الطويلة للمسلمين السابقين.

ولكن ـ والحق يقال ـ أنهم مع هذا كانوا أكفّاء كما قلت من قبل لم يفرِّطوا ولم يضيعوا، وكان لهم أثر كبير في الفتوح والانتصارات التي أحرزها. المسلمون، لم يختلف في ذلك اثنان، ولم ينكره عليهم عدو ولا صديق.

هكذا كان الوضع في عهد الخليفتين الراشدين، وهكذا لمس المسلمون في عهديهما ذلك التباين الواضح في سياستيهما، تشديد ضاقت به النفوس في عهد عمر، وتوسعة أحقدت النفوس في عهد عثمان، وإبعاد للأهل والأقارب عن الولايات والأمرة في عهد عمر، وتقريب لهما وتوليتهما في عهد عثمان.

لا عجب أن تتطلع النفوس في العهد الثاني إلى ما حرمت منه أولاً، ولا غرابة أن تشرئب الأعناق إلى ما لم تتطاول إليه من قبل، فكان التنافس على الدنيا والتي فتحت عليهم، وكانت المبادرة إلى جمع أسباب الترف

الذي حرموا منه فترة من الزمان.

ولا شك أن تكون النتيجة الحتمية لذلك التنافس وتلك المبادرة هي ظهور انحرافات في المجتمع الذي استبدل الترف بالتقشف، واللين بالخشونة ولا سيما هؤلاء الذين لم يسعدوا بصحبة الرسول الكريم، ولم يحظوا بالمثول بين يديه يقوم نفوسهم بالإسلام، ويهذب طباعهم بمبادئه وتعاليمه، ويصقل قلوبهم بالزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله من النعيم والأجر.

مجتمع المدينة

كان المجتمع في نهاية عهد عمر، وبداية عهد عثمان يتكون من طوائف مختلفة، فمنهم سكان المدينة الأصليون، ومنهم الأعراب النازحون، ومنهم الذين أسلموا من اليمنيين ومنهم المهاجرون الأولون، وكانت هذه الطوائف كلها تعيش إلى جوار بعضها في عاصمة الإسلام متحابة متآلفة، وحَّدها الإسلام فنسيت أوطانها، وآخى بينها الإيمان فانسلخت من عنصريتها، وألف الله بين قلوبها فأصبحت بنعمته طائفة واحدة.

تعايشت هذه الطوائف في المدينة في جو من السلام الذي نادى به الإسلام، فلم يسمع بينها خلاف أو شقاق إلا كما يسمع بين أفراد العائلة الواحدة، وتلك طبيعة الإسلام يصهر النفوس فيستل أضغانها، ويصقل القلوب فيزيل أحقادها، فيعيش الناس في ظله الوارف إخواناً متحابين.

ولم تمضِ السنة الأولى أو السنوات الأول من عهد عثمان حتى ظهرت في المدينة طوائفَ جديدة، مارست حقها في العيش إلى جوار هذه الطوائف القديمة، وتطلعت إلى ما لم يتطلع إليه المسلمون الأولون في عهد عمر، فقد كان ـ رضي الله عنه ـ آخذاً بزمامهم، ممسكاً بحجزهم عن أن يتهافتوا على أمور تؤدي بدينهم، وتشوه سابقتهم، وتنقص من قدر المنزلة التي بلغوها في حياة النبي ـ ﷺ ـ ولكن عثمان لم ينهج نهج عمر في ذلك، فأرخى لهم الزمام يسيحون في الأرض حيث يشاءون، ووصلهم بالعطايا والجوائز فاتخموا بالأموال وراحوا يبيعون ويشترون.

كانت تلك الطوائف الجديدة متمثلة في الطلقاء من المكيين الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد الفتح، وكان معظمهم من شباب قريش الذين أولعوا بالمغامرات شأنهم في ذلك شأن كل طبقة تشعر بتفوقها على غيرها من طبقات المجتمع الذي تعيش فيه.

وكان لهم آمال وطموح وتطلع إلى حياة تتناسب مع مكانتهم التي كانت لهم قبل الإسلام، فحال عمر ـ رضي الله عنه ـ بينهم وبين ما يخططون له من المغامرات، ووقف سداً منيعاً في وجه هذه الآمال وتلك التطلعات فانكبح جماحهم، وسلس قيادهم، ولكنهم ظلوا يتحينون الفرص حتى أتيحت لهم في عهد عثمان.

وكان من هذه الطوائف أبناء الأنصار الجدد، الذين عرفوا من تاريخ آبائهم ما حفزهم لأن يحاولوا أن يأخذوا مكانهم بين المسلمين كما كان آباؤهم من قبل ولكنهم رغم تلك المحاولات لم يحصلوا على ما تطلعت إليه نفوسهم، فكانوا بذلك غير راضين عن الوضع الجديد.

لقد كانوا يطمعون أن ينالوا تلك المكانة في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ الذي وسع الناس بمنحه المتوالية، وعطاياه التي لم تنقطع، ولكن أغلب الظن أن عثمان لم يولهم تلك الالتفاتة التي طمعوا فيها منه، فسخطوا وظلوا متربصين.

وهناك الأعراب الذين كانوا ينزحون إلى العاصمة ـ المدينة ـ طمعاً في المشاركة في المغانم التي كانت تجلب إليها، وكانوا يعتقدون بحقهم في المساواة التي فرضها الإسلام لكل رعاياه.

لم يستطع الخليفة أن يسع كل هذه الطوائف كما وسع خاصة المسلمين، ولم يقدر على أن يتيح لهم فرصة الثراء على حد سواء فغضبت النفوس الضعيفة، وأصبحت مستعدة للانفجار، تنتظر اليد الآثمة التي تشعل الفتيل لتنفجر مدمرة غير مكترثة بالنتائج والآثار.

وبهذا كان مجتمع المدينة مهيأ للاشتراك في فتنة هوجاء تأكل الأخضر

واليابس، وتفتك بالصالح والطالح، وتطحن بكلاكلها حضارة أمة شيدتها بدمائها ودعمتها بأرواح أبنائها.

أسباب الفتنة

لا يستطيع أحد أن يحدد أسباب الفتنة في زحمة هذا الجو المشحون بالقلائل والاضطراب، ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن سبباً بعينه هو الذي أثار الفتنة وأشعل تلك الفوضى التي اجتاحت هؤلاء الآمنين.

لقد أحصى المؤرخون أسباب الفتنة في أمور تعلل بها المتمردون فقالوا:

١ ـ إنه ضرب عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه.
٢ ـ وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ـ ومنعه عطاءه.
٣ ـ وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وحرق المصاحف.
٤ ـ ونفى أبا ذر إلى الربذة، وأخرج أبا الدرداء من الشام.
٥ ـ ورد الحكم بن العاص بعد أن نفاه الرسول ـ وحمى الحمى.
٦ ـ وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر.
٧ ـ وولى أقاربه، وأعطى مروان خمس أفريقيا.
٨ ـ وضرب بالعصا بدل الدرة.
٩ ـ وخطب على درجة رسول الله ـ ﷺ ـ فوق المنبر، وانحط عنها أبو بكر وعمر.
١٠ ـ ولم يحضر بدراً ـ وفر في أحد ـ وغاب عن بيعة الرضوان.
١١ ـ ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان (الذي حرض على قتل أبيه).
١٢ ـ وكتب مع عبد له على جبله إلى ابن أبي سرح ليقتل قوماً ظلماً[1].

ونحن إذا نظرنا في هذه الأسباب لا نجد فيها مجتمعة ما يبرر قتل أمير المؤمنين، بل ولا ما يثير الشبهة في قتله، أو يقتضي الخروج عليه، ونقض البيعة التي أخذها من المسلمين.

---

(١) العواصم من القواصم ص: ٥٣ ـ ٥٤.

وإني لن أناقش هذه الأسباب التي اعتمد عليها المفتونون ليقتلوا خليفتهم، فقد ناقشها من قبل أئمة أعلام[1]، وأثبتوا زيفها، وبطلانها، وما صح منها[2] بينوا حق الخليفة في فعله، وأثبتوا أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قد فعل مثله ولم يلمه أحد على فعله.

ولكني سأناقش الموضوع من وجهين:

الأول: لو فرضنا صحة ما نسبوا إلى عثمان هل فيها ما يبرر قتله؟.

الثاني: شخصيات الثائرين، وهل فيهم من هو أحرص على الدين ومحاسبة الخليفة على التقصير فيه من كبار الصحابة الموجودين؟؟.

إن الباحث المدقق لو استعرض ما نسبه الخارجون إلى الخليفة مع تقدير صحة نسبته ووقوعه منه لا يرى فيه أكثر من أمور كلها قابلة للاجتهاد، والخطأ والصواب، وكل ما كان شأنه كذلك لا يبيح أبسط الحدود وبخاصة عند وجود الشبهة، فكيف برر به المتمردون قتل أمير المؤمنين وفي أعناقهم له بيعة؟ إن نقض البيع أعظم جرماً من أي خطأ نسب إلى عثمان، وإن الخروج على الخليفة وتفرقة جماعة المسلمين أبشع من أية تهمة وجهت إلى عثمان.

والرسول ـ ﷺ ـ قد بين في وضوح الأسباب التي تبيح دم الإنسان، وحددها تحديداً بيِّناً حتى لا يتذرع المتأولون بأية شبهة تبيح لهم دماء المسلمين، قال ـ ﷺ ـ: «لا يحل دم أمرىء يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه الفارق للجماعة»[3].

فأي واحدة من هذه الثلاث ارتكبها عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى يستبيح هؤلاء المارقون بها دمه الذكي؟.

---

(١) مثل العسكري في الأوائل، وابن العربي في العواصم، وابن تيمية في منهاج السنة، والبكري في تاريخ الخميس وغيرهم.

(٢) مثل كتابة المصحف، وحماية الحمى.

(٣) رواه مسلم.

لو وقف المتمردون عند حد الاحتجاج على ارتكاب هذه الأخطاء لكان لهم عذر مقبول ولعلمنا حرصهم على مصلحة المسلمين، ولو رفعوا الأمر إلى مجلس الشوري الذي اختار عثمان ليحقق معه فيما نسب إليه سنّوا في الخلفاء سنة محمودة، أما أن يقرنوا الاحتجاج بالتنفيذ وليسوا من أهله، وأما أن يحكموا على الخليفة وهم خصومهُ الألداء، فذلك هو الأمر الذي لا يقره عقل، ولا يرضى به عرف، ولا تقبله شريعة من الشرائع.

ولا شك أن أي منصف من الناس بعد أن يعرف هذه الحقيقة لا بدّ أن يسأل لماذا إذن قتل أمير المؤمنين ـ عثمان ـ رضي الله عنه؟؟ ـ.

وعندئذٍ لن يجد الجواب الشافي الذي يقنع عقله، ويرضي ضميره إلا في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ فتنة، فمر رجل، فقال ـ ﷺ ـ «يقتل فيها هذا المقنع يومئذٍ مظلوماً» قال ابن عمر: فنظرت، فإذا هو عثمان بن عفان[1].

فعثمان إذن قتل ظلماً، وليس هناك سبب واحد يبرر قتله مهما كان السبب، ومهما كان المفترون المختلقون لهذه الأسباب.

والذي يظهر للمحقق بعد النظر في هذه التهم، وتفنيد أمير المؤمنين ـ عثمان رضي الله عنه ـ لها أنها كانت لتبرير الوثوب على الخليفة، وإقناع المخدوعين من العوام بالخروج عليه، والمقصود الحقيقي لهم هو قتل الخليفة لإشاعة الفتنة والاستيلاء على المناصب التي كانت نفوسهم تتطلع إليها، وليس هناك وسيلة إلى ذلك في نظرهم سوى ارتكاب هذه الجريمة التي تترفع عن ارتكابها النفوس السوية.

وليس أدل على ذلك مما رواه الطبراني، قال: إن علياً لما فرغ من البيعة بعد وقعة الجمل، استعمل عبد الله ابن عباس على البصرة، فلما بلغ الأشتر النخعي ذلك غضب، وقال: (علام قتلنا الشيخ إذن؟؟ اليمن

---

(١) رواه أحمد في المسند.

لعبيد الله، والحجاز لقثم، والبصرة لعبيد الله، والكوفة لعلي)[1].

وتدل عبارة الاشتر على أحد أمرين: الأول أن تكون نفسه قد طمعت في إحدى الولايات الإسلامية وأمل الوصول إلى غايته بعد مقتل الخليفة، فلما لم يصل إلى غايته غضب وقال ما قال. والثاني: أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قد ولى أقاربه كما فعل عثمان، فلماذا قتل عثمان وهو لم يفعل منكراً، ولم يأتِ بدعاً؟.

ولكن غضب الأشتر، وتعداده للولايات التي شغلها علي بأبناء عمه دون أن يجعله على واحدة منها يدل على أنه كان يريد شيئاً منها لنفسه.

ولعل أمير المؤمنين ـ علياً ـ قد أدرك هذا من الأشتر فخاف أن يحرك الشر في نفوس الناس ويثير الفتنة من جديد وهي لما تنطفىء، فولاه على مصر بعد قيس بن سعد بن عبادة، ولكن المنية عاجلته فمات بالقرب من القلزم (السويس)[2].

ولم يكن هناك أسباب إذن لقتل الخليفة المفترى عليه، وإثارة الفتنة ضده، وتحريض العامة عليه، وإنما كانت هناك أطماع في قلوب جشعة حاولت الوصول إليها فلم تفلح، فافترت على الخليفة الكذب، وأشاعت الأباطيل، واختفت في ظلام الفتنة الحالك، وارتكبت أبشع جرم عرفته الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل، وكان الهدف الحقيقي هو الإسلام.

ولننظر الآن في رؤوس تلك الفتنة العمياء، وأحلاس هذه الفوضى الضاربة أطنابها في كل ميدان، إننا لو استطعنا أن نعرف شيئاً عن هؤلاء الذين تزعموا تلك الحركة وقادوها وأشعلوا نار الفتنة وأوقدوها لأدركنا السر الكامن وراء ما دَبَّر هؤلاء من كيد ولعرفنا حقيقة تلك الحركة المشبوهة التي استمرت آثارها تهدم في ذلك البناء الشامخ سنوات عدة حتى انتهت الخلافة الرشيدة.

---

(١) الطبري (٤/٤٩٢).

(٢) الإصابة (٣/٤٨٢).

إن المؤرخين مجمعون على أن هناك أشخاصاً تزعموا تلك الفتنة، ويكادون يُجمعون كذلك على أن رأس الأفعى هو عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وكان له أعوان لا يقلون تحمساً عنه في السير بتلك الفتنة ذكرهم المؤرخون وهم:

١ ـ كنانة بن بشر التجيبي قاتل الخليفة.
٢ ـ مالك بن الحارث المشهور بالأشتر النخعي.
٣ ـ حكيم بن جبلة العبدي.
٤ ـ الغافقي بن حرب العكي[١]، وهؤلاء هم رؤوس القوم وزعماؤهم.

وهناك رجال يعتبرون في نظر المؤرخين الصف الثاني بعد هؤلاء الرؤوس وهم: ـ

١ ـ خالد بن ملجم.
٢ ـ سودان بن حمران.
٣ ـ صعصعة بن صوحان.
٤ ـ زيد بن صوحان.
٥ ـ عبد الله بن بديل بن ورقاء[٢].

وكان وراء هؤلاء وأولئك أقوام مخدوعون، تورطوا في الفتنة بتحريض من الرؤساء، ويظهر أن هؤلاء المخدوعين قد كثر عددهم كثرة مخيفة، حتى روى الطبري أن عدد الخارجين من مصر بلغ ستمائة رجل مقسمين إلى أربع فرق على كل فرقة أمير، وكان الغافقي هو الرئيس العام[٣].

كذلك كان عدد الخارجين من البصرة حوالي ستمائة رجل مقسمين إلى أربع فرق على كل فرقة أمير. وهكذا كان الذين خرجوا من الكوفة[٤].

---

(١) العواصم ص: ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) نفسه.
(٣) الطبري (٤/٣٣٨ ـ ٣٣٩).
(٤) نفسه.

لقد استشرت الفتنة في الولايات الإسلامية كلها ما عدا الحجاز والشام، والذي يظهر من هذا العدد الضخم الذي رواه الطبري أن رؤوس الفتنة قد بذلوا جهداً مضنياً، وأنفقوا وقتاً غير قصير في إقناع هؤلاء الثائرين بالخروج على الخليفة، وحضر هؤلاء إلى المدينة وقلوبهم مملوءة بالأحقاد، ونفوسهم مفعمة بالبغضاء، وقد تمكن المحرضون من شحن رؤوسهم بالأكاذيب والافتراءات على الخليفة المظلوم.

ولم يكد هذا الجمع الحاقد يستمع إلى الخليفة وهو يدحض شبهة المغرضين، ويفند أباطيل المتمردين، حتى اقتنع بالحق الذي نطق به الخليفة، ولم يكتفِ بذلك بل حمل زعماء الفتنة على تصديقه، ورجعوا إلى بلادهم موفورين.

ولكن هل رضى الزعماء بهذه النتيجة؟ وهل كانت هذه الجولة هي خاتمة المطاف؟ لو كان الأمر كذلك لأغلقت أبواب الفتنة، ولأوصدت نوافذ الشر، ولأصبح المسلمون في عافية من هذا البلاء مجتمعين حول خليفتهم، يسددونه إذا أخطأ، ويقومونه إذا حاد، ويعضدونه في مسيرته الطويلة لنشر الحق، ورفع الظلم، وإعلاء كلمة الله.

لم تكن تلك النتيجة مرضية للزعماء، وإن أقنعت العامة، وجعلتهم يضغطون على رؤوسائهم ليقبلوها ويرضوا بها، وبالتالي لم تكن تلك الجولة خاتمة المطاف لا بالنسبة للزعماء، ولا بالنسبة للغوغاء.

كنا نعتقد أن هؤلاء المنصرفين عن المدينة قد انصرفوا مقتنعين اقتناعاً لا يدع لدعاية المفترين مكاناً في نفوسهم، ولا يترك لحيل الكذابين مجالاً في قلوبهم، ولكن ذلك لم يكن، لأن المخدوعين كانوا من عوام الناس الذين لم تبلغ عقولهم رشدها لتدرك ما وراء الخديعة من بلاء دبره قادة الفتنة للمسلمين.

وهكذا العقول الساذجة التي لم تتمرس بحياة الخداع والمكر، والقلوب الخاوية التي لم تملأ بالإيمان والعلم يسهل على ذوي النيات السيئة التلاعب بها، ولا يصعب على أهل الأهواء والأغراض إقناعها بما يريدون.

إن المؤرخين يذكرون أن الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة لم ينصرفا مع المنصرفين من المدينة إلى بلادهم التي قدموا منها، وكأنهم قد ساءهم فشل تدبيرهم، وحز في نفوسهم تلك النهاية التي مُنيت بها خطتهم الخبيثة، فتخلفا ليدبرا أمراً[1].

ويقول الأستاذ محب الدين الخطيب: وفي ذلك ـ أي في تخلف الأشتر وحكيم بالمدينة ـ شبهة قوية بأن لهما دخلاً في افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين[2].

وإني لأرى الوقت مناسباً لمعرفة مصدر الشر، والعثور على روافده التي كانت تغذيه، وما كان المتمردون يضمرونه للإسلام وذويه.

قلت من قبل أن رؤوس الفتنة خمسة رجال هم: ابن سبأ، والاشتر وكنانة وحكيم والغافقي ولكهم كما يبدو من أسمائهم مجهولون لم يعرف التاريخ أسماءهم إلا لاشتراكهم في الفتنة، ولولا الفتنة لظلوا كغيرهم في طي النسيان، وإنما مثلهم في ذلك كمثل الشيطان، لولا وقفته من آدم ـ عليه السلام ـ ما عرف أحد اسمه، ولا ورد على طرف لسان.

وقد يعجز أناس عن البروز عن طريق البطولات، واتخاذ مكانتهم في النفوس عن طريق الفضائل والمكرمات، فيلجون أبواب الفساد وهي مفتوحة لكل راغب، ويقتحمون الرذائل وهي ميسرة لكل طالب، فتطير لهم شهرة مع الأباليس.

وأخس من هؤلاء وأدنأ هؤلاء الذين يلبسون مسوح الرهبان، ويقتنصون فريستهم كالذئاب، فيذكرون ببطولات كذوبة، ويظهرون على صفحات التاريخ بوجوه مزورة.

وقد يحسب هؤلاء أنهم سيظلون مستورين، وأن تزويرهم سيبقى ببقاء

---

(١) الطبري (٥/ ١٢٠) طبع أوروبا.
(٢) حاشية العواصم ص: ٨٩.

التاريخ ولكن سرعان ما يقيض الله للحقيقة رجالاً يبرزونها، ويكشفون الزيف عن جوانبها فتبدو في صفاء الذهب، وطهارة الماء والثلج والبرد، ويفتضح الدجّالون، ويرى الناس وجه الحق الأبلج البراق.

ورؤوس الفتنة الخمسة دخلوا التاريخ من بابه الخلفي، وذكروا إلى جوار العظماء من رجاله كما يذكر الشر بذكر الخير، وحجبوا وجه أحداثه النَيِّر المضيء كما يحجب لذة التمتع بالنعمة ذكر النقمة.

ولست في ذلك متجنياً على الرجال، ولكنها الحقيقة رواها التاريخ نفسه الذي اعتدى على قداسته الدخلاء، ولنسرد شيئاً من تاريخهم يكشف عن هوياتهم.

١ ـ عبد الله بن سبأ:

يكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن سبأ هذا هو زعيم هذه الفتنة الطامة، ويسميه بعضهم ابن السوداء، لأن أمه امرأة سوداء، ولم يفرق أحد بين ابن سبأ وبين ابن السوداء سوى صاحب (الفرق بين الفرق) فإنه جعل ابن السوداء شخصاً آخر غير ابن سبأ[١].

وكما أجمع كبار المؤرخين على أن عبد الله بن سبأ هذا هو زعيم الفتنة أجمعوا كذلك على أنه يهودي الأصل من يهود اليمن، وأنه أسلم في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قالوا: وتنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم، خرج من صنعاء وتوجه إلى الحجاز، فلم يجد سميعاً لدعوته، فذهب إلى البصرة ثم الكوفة و منها إلى الشام، وكان يطارد من الأمراء في كل مكان ينزله، واستقر أخيراً في مصر[٢].

يقول ابن كثير: وكان أصله ـ عبد الله بن سبأ ـ ذمياً، فأظهر الإسلام، وأحدث بدعا قولية وفعلية[٣] وكانت هذه البدع تتمثل في قوله بالرجعة، فكان

---

(١) الفرق بين الفرق ص: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) الطبري (٣٤١/٤)، ابن الأثير (١٥٤/٣).
(٣) البداية والنهاية (١٧٣/٧)، ابن كثير (١٧٣/٧).

يقول: يا عجبا ممن يؤمن برجعة عيسى بن مريم ولا يؤمن برجعة محمد، ومحمد أفضل من عيسى، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[1] كما كان يقول: (إن علياً هو وصي محمد من بعده)[2].

وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي ـ رضي الله عنه ـ ورغم أن علياً حي لم يمت ففيه الجزء الإلهي، ولا يجوز أن يستولي عليه، وهو الذي يجي في السحاب، والرعد صوته، والبرق تبسمه، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[3].

وابن سبأ حسب آراء المؤرخين رجل خطير، له أغوار بعيدة خفيت على كثير ممن اتصل بهم، والذي يظهر من هذه الروايات أنه كان داهية، يعرف كيف يدخل على القلوب، وكيف يقنعها بما يريد، ويبدو لمن يتمعن فيما أدخله على المسلمين من هذه الآراء الفاسدة التي لم يعرفها المسلمون من قبل ابن سبأ، أن فيها خطراً داهماً يهدد العقيدة من أساسها، وينحرف بالمسلمين عن الجادة التي تركهم عليها رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحباه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ مما يدل دلالة واضحة على أن الهدف الذي سدد له ابن سبأ سهامه ليس أمير المؤمنين، ولا نقل الخلافة منه إلى الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ كما تظاهر ولكن كان هدفه الإسلام، وكل همه القضاء على تلك الدولة التي قضت على ما كان يتمتع به اليهود من الهيمنة والسلطان على عرب المدينة والحجاز عامة[4].

رأي الدكتور طه حسين في ابن سبأ ومناقشته

ويحاول الدكتور طه حسين التقليل من شأن ابن سبأ، ويدلل على أن المؤرخين أسرفوا في الكلام عنه، وبالغوا فيما نسب إليه، ويحاول أن يثبت

---

(١) و(٢) الطبري (٤/٣٤١).

(٣) الملل والنحل (١/١٧٤).

(٤) حاشية مقالات الإسلاميين ص: ٥٠.

في كلامه براءة ابن سبأ من إشعال الفتنة، ويصر على أنه لم يثر الفتنة، ولم يحركها، وأقصى ما يقول فيه: إنه استغل الفتنة، ودعا إلى ما دعا إليه بعد قيامها[1].

ولست أدري قبل أن أناقش هذا الكلام إن كان الدكتور طه حسين يعتقد حقاً ما قاله عن ابن سبأ أم أنه يريد به إخفاء الدور الخطير الذي قام به وصرف الناس عنه، ولكي نكون منصفين لا بدّ أن نحمل دفاع الدكتور عن ابن سبأ على أحسن الوجوه وأجمل المحامل، ثم نرى بعد ذلك وجه الحق في هذا الرجل المتهم.

ولا بدّ كذلك أن نعتبر ابن سبأ هذا بريئاً حتى تثبت إدانته، وعندئذٍ لا بدّ أن يكون الإنصاف ألا نحمل رجلاً تبعة عمل دبره وقام به، أو نثبت براءته، وحينئذٍ لا بدّ أن نعلن هذه البراءة على صفحات التاريخ.

إن أول دليل يقدمه الدكتور طه حسين على أن ابن سبأ ليس له ضلع في فتنة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وليس هو المحرض عليها، أن ابن سعد في الطبقات لم يذكره، وكذلك البلاذري في أنساب الأشراف لم يشر إليه، ويعتبر الدكتور طه أن المصدرين السابقين هما أوسع المصادر التي تناولت الموضوع بالتفصيل والتدقيق.

والحق إنها شبهة قوية تعترض الباحث المحقق، ولكن إذا علمنا أن المصدرين المذكورين لم يذكرا كل شيء عن أحداث هذه الفترة من الزمان، بل فاتهما كما فات غيرهما أشياء أجمع عليها المؤرخون الذين جاءوا بعدهم، وهم عدول ثقات، لو علمنا ذلك لهان الخطب وسقطت الحجة، وأصبحت غير واردة في الموضوع.

ثم يقول الدكتور: ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن؟ ولكني أقطع بأن خطره، إن كان له خطر ليس ذا شأن.

---

(١) الفتنة الكبرى (عثمان) ص: ١٣٢ ـ ١٣٤.

إن هذا الكلام فيه أسراف كبير في تهوين أمر ابن سبأ، ونحن لو سلمنا أنه لم يكن له خطر في الفتنة، فكيف لا يكون له خطر في هذه الأفكار الغريبة التي أحدثها في تاريخ المسلمين، لأن الأفكار التي حاول بثها في نفوس المسلمين تمس عقيدتهم، وتدخل على دينهم ما ليس فيه، والمؤرخون مجمعون على أن ابن سبأ أفشى هذه الأفكار ورددها على مسامع المسلمين في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ونحن لا نسلم مطلقاً بأنه ليس من أثار الفتنة، فبين أيدينا مؤلفات الثقات من المؤرخين، يصرحون فيها بدور ابن سبأ الخطير في تلك الفتنة الهوجاء.

فالطبري يقول: إن ابن سبأ لما أظهر القول بالرجعة وقال بأن علياً هو وصي محمد ـ ﷺ ـ أخذ يحرض على عثمان، ويقول: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وهذا وحي رسول الله ـ يريد علياً ـ انهضوا إلى هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1].

وابن كثير يروي أن ابن سبأ كان يحرض الناس على عثمان ويقول: أخذها بغير حق وعليّ وصي رسول الله، فهو أحق بالخلافة من عثمان[2].

والمقريزي يذكر أن ابن سبأ هو الذي أثار فتنة عثمان، وتكلم عن الرجعة والوصية[3].

ويروي ابن عساكر عن الشعبي أن ابن سبأ كان يكذب على الله ورسوله، ويذكر أنه كان ينتقص أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وأن علياً هم بقتله، فتوسط له الروافض فنفاه إلى المدائن[4].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (٤/٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٦٨).

(٣) الخطط (٣/٢٦٣).

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٧/٤٢٩ ـ ٤٣٠) وغير هؤلاء كابن الأثير والعسكري، وممن كتب في أصول الدين كالشهرستاني والأشعري والأسفرائيني وغيرهم.

ونحن أمام هذه الأقوال الصريحة لمؤرخين ثقات لا نستطيع أن نوافق على أن ابن سبأ لم يكن له خطر ذو شأن في فتنة عثمان، نعم نحن لا نستطيع أن ترك هذه الأقوال الصريحة لنتبع الدكتور طه حسين في استنتاج استنتجه لا ندري أوافقه الصواب فيه أم جانبه؟.

ويترك الدكتور طه حسين اتصال ابن سبأ بأبي ذر، وتحريضه على معاوية، ويرى أن هذا القول بعيد كل البعد إذ كيف يقبل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قول ابن سبأ، ويرد قول كعب الأحبار الذي هو أقدم إسلاماً، وأكثر صحبة لعمر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ؟.

والأمر ليس كما يصوره الدكتور، وتلقي أبي ذر من ابن سبأ، ورفضه لرأي كعب الأحبار جائز جداً، ذلك لأن أبا ذر قد اتخذ لنفسه مذهباً خاصاً في المال لم يوافقه عليه أحد من الصحابة، وقد استغل ابن سبأ ميل أبي ذر فأتاه من حيث يهوى، وهو حينئذٍ لم يلقنه شيئاً لا يعرفه، ولكنه ذكره بأمر ينادي به، وساقه إليه بصورة مثيرة جعلته يعاتب معاوية ـ رضي الله عنه ـ فيه، ونسوق هنا الموضوع كما رواه الطبري وابن الأثير.

لما ورد بن السوداء (عبد الله بن سبأ) الشام لقيَ أبا ذر فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية يقول: (المال مال الله، ألا إن كل شيء الله) كأنه يريد أن يعتجنه دون المسلمين ويمحواَ أمم المسلمين.

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعو لعلمي أن نسمي مال المسلمين (مال الله)؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا نقله.

قال معاوية: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكني سأقول مال المسلمين[1].

هذه قصة اتصال ابن سبأ بأبي ذر، ونحن لا نرى فيها إلا موافقة

---

(١) الكامل (٣/١١٤ ـ ١١٥).

لمذهب أبي ذر واستثارة له ليخرج على معاوية ويختلف معه، وقد ذهب أبو ذر إلى معاوية، وكلمه في ذلك، ولكن معاوية أفسد على ابن سبأ حيلته بحكمته التي اشتهر بها، وأجاب أبـا ذر إلى ما طلب، فـرضى أبو ذر وانصرف.

ويبدو أن انتهاء الموضوع بهذه النتيجة لم يرض ابن سبأ، فذهب إلى رجل من أصحاب رسول الله اشتهر بالزهد والورع والتقوى، هو أبو الدرداء، وكلمه فيما كلم فيه أبا ذر، ولكن أبا الدرداء كان لا يدين ـ مع زهده ـ بهذا المذهب، فقال لابن سبأ: من أنت؟ أظنك والله يهودياً.

ولم يسكت ابن سبأ، بل ظل يحرك، ويتصل بالصحابة، ويذهب إليهم ليثيرهم ضد معاوية، فكلم عبادة بن الصامت بعد أبي الدرداء، فتعلق به عبادة، وذهب به إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر[1].

وهذه الرواية التي رواها جلة المؤرخين الموثوقين تدين ابن سبأ بما لا يدع معه مجالاً للدفاع عنه، ولو أنه كان حسن القصد، سليم النية، لما كررها بتلك الطريقة التي جعلت أبا الدرداء يرده إلى أصله اليهودي، وعبادة يسلمه إلى معاوية.

وأما قصة أبي ذر مع كعب الأحبار فإنها تختلف تماماً حيث كان كعب الأحبار ضد طريقة أبي ذر ورأيه في المال، فإن أبا ذر لما دخل على عثمان بعد رجوعه من الشام قال: لا ينبغي لمن أدى الزكاة أن يكتفي بذلك حتى يعطي السائل، ويطعم الجائع، وينفق من ماله في سبيل الله.

فقال كعب الأحبار ـ وكان حاضراً ـ: من أدى الفريضة فحسبه. عندئذٍ غضب أبو ذر، وقال لكعب: يا ابن اليهودية، ما أنت وهذا؟ أتعلمنا ديننا؟ ثم وجأه بمحجنه[2].

إن أبا ذر لم يغضب لأن كعب الأحبار هو الذي رد عليه، ولكنه غضب

---

(١) نفسه.

(٢) الكامل (٣/١١٥).

لأنه لم يوافق رأيه ومذهبه، ولو أن غير كعب هو الذي قال ذلك لغضب أبو ذر أيضاً ولم يسكت، وقد رأيته من قبل غضب على معاوية وعاتبه، كما غضب على عثمان نفسه ولم يرضَ بطريقته.

فالقصة إذن لا تصلح دليلاً للدكتور يدحض به رأي القائلين بأن ابن سبأ رأس من رؤوس الفتنة، وأنه كان يحرض على عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويؤلف على الأمراء في الأقاليم.

ولقد كانت هذه خطة ابن سبأ مع الأمراء، أتبعها في كل مصر نزله بدون استثناء فإنه قبل أن يذهب إلى الشام كان في البصرة، ونزل على حكيم بن جبلة، وأخذ يحرضه على عبد الله بن عامر والي البصرة، ولما سمع ابن عامر بما يقول ابن سبأ استدعاه، وسأله من أنت؟ قال: رجل من أهل الكتاب أسلم وأحب جوارك، فقال ابن عامر: فما هذا الذي بلغني عنك؟ أخرج عني، فخرج إلى الشام[1].

وفي الشام حرض على معاوية كما رأينا فأخرجه إلى مصر، وكان له في مصر صولات وجولات، يقول ابن عساكر:

لما قدم ابن السوداء على مصر عجمهم واستخلاهم واستخلوه، وعرض لهم بالكفر فأبعدوه، وعرض لهم بالشقاق فأطاعوه، فبدأ بالطعن على عمرو بن العاص، وكان يقول: (ماله أكثركم عطاء) وحرض عليه الناس، وأوعز إليهم أن يستعفوا منه[2] وطلب أهل مصر من الخليفة أن يعفيهم من عمرو فأجابهم كعادته، وجعل عمراً على الحرب وعين معه عبد الله بن سعد على الخراج.

ومع هذا الوضع الجديد في مصر بدأ ابن سبأ خطوة جديدة، حين حرض الناس على الوشاية بين عمرو وبين ابن أبي سرح حتى أفسد ما بينهما، و شكا ابن أبي سرح إلى الخليفة من عمرو بن العاص، فعزل

---

(١) الكامل (٣/١٤٥).

(٢) تهذيب التاريخ (٧/٤٢٩ ـ ٤٣٠).

الخليفة عمراً، وجمع الحرب والخراج لعبد الله.

وقدم عمرو على الخليفة في المدينة، وسأله الخليفة عن سبب استعفاء المصريين منه، فقال عمرو: والله يا أمير المؤمنين ما كنت منذ وليتهم أجمع لأمري، ولا أحسن سيرة معهم مني منذ كرهوني وما أدري من أين أتت[1]؟.

وإننا لنرى في كلام عمرو ـ رضي الله عنه ـ دليلاً واضحاً على أن هناك مؤمرات تدبر في الخفاء إذ كيف يكرهه أهل مصر وسيرته فيهم سيرة حسنة، وهو والٍ عليهم منذ عهد عمر ولم ينكر عليه أحد شيئاً، بل كانوا راضين عنه غاية الرضا؟.

أليس استعفاء المصريين من عمرو، وطلبهم من الخليفة إبعاده عنهم ـ وهو الرضي المحبوب فيهم ـ دليلاً على أن النفوس قد تغيرت، وأن هناك نفوساً خبيثة تلعب بالبسطاء في الخفاء.

ونحن نتساءل لماذا لم تحدث هذه القلاقل إلا في تلك الفترة بالذات؟ ولماذا لم تكثر الشكاية من أمراء لم يشتك منهم أحد قبل ذلك إلا بعد دخول ابن سبأ في الإسلام؟؟.

هل هي الفتنة التي يشعلها المتمردون، أم أن الناس قد تغيروا، وتغيرت بهم الأوضاع كما يقول الدكتور طه حسين؟؟.

لا أعتقد أن التغيير يصل فجأة إلى هذا الحد المشتعل، ولكن التغيير في النفوس يحدث عادة ببطء وعلى مدى بعيد من الزمن، ما لم تحدثه أيدٍ خبيثة ونفوس شريرة، تشعل فتيله، وتصب النفط على جمره ليزداد لهيبه.

لقد كان الناس ـ إلى نهاية عام اثنين وثلاثين من الهجرة، أي بعد خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ بتسع سنوات تقريباً ـ راضين كل الرضا عن عثمان، نعم، كانوا يطلبون منه تغيير أمير بأمير آخر، لأن الأمير الأول في نظرهم اشتد عليهم، وهم يلمسون لينا ورحمة من الخليفة فيطمعون في أن

---

(١) نفسه.

يكون أميرهم على نحو ما عليه الإمام الأعظم. من لين الجانب، والرحمة بالرعية، ولكنهم مع هذا لم يفكروا في الخروج على الخليفة ولم يخطر ببالهم يوماً أن يكون الإمام ضحية فتنة عمياء.

وفي اعتقادي أن التغيير الذي يطرأ على نفوس الناس وحده لا يكفي لإثارة فتنة مثل تلك التي أثيرت في المدينة، ولكن لا بدّ أن يصحب هذا التغيير دوافع تحرك النفوس في اتجاه يصل بالناس إلى سفك الدماء، والإفساد في الأرض، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لقد ذهب ابن سبأ إلى البصرة في عام ٣٣ هجرية، فحرض على أميرها فأخرجه منها[١] فذهب إلى الشام، وأثار أبا ذر، وحرض الصحابة على معاوية، فزجره أبو الدرداء وتعلق به عبادة بن الصامت، وذهب به إلى معاوية، فانكشف ستره، فأخرجه[٢].

ثم ذهب إلى مصر واستقر بها، ووجد هناك من الأعوان من ساعده على إثارة الفتنة من أمثال محمد بن أبي حذيفة.

والذي يظهر من الروايات المذكورة عند المؤرخين عن ابن سبأ أنه أسلم قبل سنة ٢٥ هـ. وأنه ذهب إلى مصر مرتين مرة في عهد عمرو ابن العاص حتى عزله عثمان ومرة في عهد ابن أبي سرح حيث استقر فيها.

يقول ابن عساكر: أن ابن سبأ لما قدم مصر بدأ بالطعن على عمرو ابن العاص، وحرض عليه، فقال الناس، كيف نطيق ذلك مع عمرو وهو رجل العرب؟ فأجابهم ابن السوداء، ستعفون منه، ثم يعمل عملنا، ويظهر الائتمار بالمعروف، والطعن فلا يرده علينا أحد[٣].

ومن هذه الرواية نعلم أن ابن سبأ نزل مصر في ولاية عمرو ابن

---

(١) المقريزي (٣/٢٦٢).
(٢) الكامل (٣/١١٤).
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٧/٤٢٩ ـ ٤٣٠).

العاص، وكان ذلك قبل سنة خمس وعشرين حيث عزل عمرو في تلك السنة على رأي جمهور المؤرخين[1].

ومنها أيضاً نعرف لماذا كان يبدأ ابن سبأ بالطعن على الولاة والأمراء، فمن سياق هذه الرواية الصريحة التي أوردها ابن عساكر بهذا التفصيل نفهم أن ابن سبأ كان يرمي من وراء الطعن على الأمراء إلى أمرين هامين.

الأول : إثارة القلق والاضطراب في جميع الإمارات الإسلامية، لأن تعويد العامة من الناس الاستعفاء من الأمراء، وتجريئهم على المطالبة بذلك، واستبدال أمير بأمير بين الحين والحين، يؤدي لا محالة إلى قلق في الأوضاع، واضطراب في الأحوال تسوء معه سياسة البلاد، وتضعف القدرة على مقاومة الفساد.

الثاني : إيغار صدور الأمراء على الخليفة، لأن الأمير عندما يشعر أنه عزل عن عمله بغير جناية ارتكبها، ولا جريمة أصابها، يحس مع إهانة العزل بمرارة الظلم فيتميز قلبه غيظاً، ويظاهر الطعانين، فتزداد الحالة سوءاً والأوضاع اضطراباً.

ومن جانب آخر فإن الأمير يباشر عمله، ويتقلد مهام منصبه وهو متوقع العزل غداً أو بعد غد، فلا يهتم بتطوير ولايته، ولا يجهد نفسه في الإصلاحات التي يجب عليه أن ينهض بها، فيتوقف النمو الحضاري، ويضعف التقدم العلمي والاقتصادي وتصبح الدولة عرضة للتدهور والانحطاط.

وكلا الأمرين لا بدّ أن يكون في حساب العابثين، ونصب أعين المخربين، إذ لا يتم لهم ما يريدون إلا عن طريق إشاعة الفساد والتدهور السياسي والاقتصادي في الأمة التي يريدون تدميرها.

وليس قول ابن سبأ للمصريين؛ عندما ترددوا خائفين من عمرو، متوقعين عدم نجاح الخطة معه، وهو الداهية الأديب: (ستعفون منه، ثم يعمل

---

(١) الإصابة (٣/٣).

عملنا، ويظهر الائتمار بالمعروف والطعن فلا يرده علينا)،إلا تصريحاً من ابن سبأ بقصده في إيغار صدور الأمراء على الخليفة وتمردهم عليه لعزلهم.

وبقيت لدينا حجة ساقها الدكتور طه حسين ليثبت بها صحة ما قاله عن ابن سبأ من أنه ليس أصلاً في فتنة عثمان، وليس له شأن يذكر فيها، يقول الدكتور: (وما كان المسلمون في عصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ ليستخفهم رجل كعبد الله بن سبأ فيسمعوا له ويطيعوا، ولماذا لم يخبر المسلمون الخليفة) بما يفعل ابن سبأ؟ وكيف أفلت ابن سبأ من أعوان الخليفة وأمرائه؟ ولو أن أحدهم أخذه لم يتركه دون أن يقتله وقد كان هؤلاء أبرع ما يكونون في التخلص من أعدائهم[1].

ويمكن أن تكون هذه حجة قوية للدكتور طه حسين لو صح أن ابن سبأ استخف كبار الصحابة، وأثر عليهم ولكن ابن سبأ لم يستطع أن يؤثر في أحد منهم، ولم يجد لمذهبه أعواناً في البلاد التي سكنها كبار الصحابة كالحجاز والشام.

ولهذا لما حاول تحريض أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ على معاوية قال: من أنت؟ والله ما أظنك إلا يهودياً، ولما أراد تكرار المحاولة مع عباده ابن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أمسك به وذهب إلى معاوية، وقال له: هذا الذي حرض عليك أبا ذر.

ولما لم يجد بن سبأ رواجاً لمذهب بين كبار الصحابة والفقهاء من المسلمين وخاف أن ينكشف أمره بينهم، ذهب إلى البلاد التي سكنها قوم لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم، ولم تستقر حقيقته في نفوسهم فتوجه إلى الكوفة ثم إلى البصرة ثم إلى مصر حيث أقام هناك.

وابن سبأ في كل تصريفاته كان يتذرع بالإيمان، ويخفي الكفر، يتقي بذلك التعرض للعقوبة لأنه متى أعلن الإيمان حقن دمه، ولهذا لما كشف

---

(١) الفتنة الكبرى (عثمان) بتصرف ص: ٩٠.

عبد الله ابن عامر والي البصرة أمره، وسأله، من أنت؟ قال: رجل من أهل الكتاب آمن بالله، ودخل في الإسلام وأحب جوارك. ولكن ابن عامر لم يقبل منه هذا الكلام وقال له: أخرج عني، وطرده من البصرة.

حاله حتى لا يتعرض للعقوبة[1]:

ويظهر لي من دراسة أحوال ابن سبأ وتصرفاته أنه كان لا يجهر بشيء من آرئه إلا لمن يثق فيه، وقد كان هؤلاء يدافعون عنه، ويشهدون له، ويسترون عليه ويبدو أنه قد لجأ إلى ذلك بعد أن انكشف أمره مع أبي الدرداء وعبادة رضي الله عنهما ـ وبعد أن أخرجه عبد الله بن عامر من البصرة ومعاوية من الشام.

إن عبد الله بن سبأ ليس خرافة يمكن للمؤرخ أن يتغاضى عنها كما يتغاضى عن كثير من الأحداث التي أدخلت على التاريخ، وليس أسطورة يمكن أن يسكت عنها المؤرخ كشيء لا أصل له، ولكنه حقيقة، دخل التاريخ كما دخله أصحاب المبادىء المدمرة والمذاهب الهدامة.

ليس هناك إنسان مهما كان قوي الحجة، واضح البيان، ساطع البرهان ينكر وجود ابن سبأ كشخص أثر في أحداث التاريخ فترة من الزمن طالت أم قصرت ووجه مسيرته في وقت ما توجيهاً حسناً أم سيئاً، اعترف بذلك مؤرخو أهل السنة، كما صرح به كتاب الشيعة.

وكذلك ليس هناك أحد يستطيع أن ينسب الأفكار الفاسدة التي أدخلت على المسلمين إلى غير ابن سبأ ببرهان مقبول، فجميع العلماء الذين كتبوا في أصول الدين، وجمهور المؤرخين يؤكدون نسبتها إلى ابن سبأ، كما يؤكدون أنه أول من تكلم بها وأول من أظهرها.

إن قول ابن سبأ برجعة الرسول ـ ﷺ ـ ووصاية علي ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) إن عبد الله بن أبي سرج في مصر قد تنبه لما يديره ابن سبأ، فكتب إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ يستأذنه في قتل ابن سبأ وأتباعه قبل أن يستفحل أمرهم، فرفض عثمان رأي ابن أبي سرج وقال: دعهم ما لم يخلعوا يداً من طاعته (تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٤٢٩).

والمغالاة فيه إلى حد الألوهية، وادعاء أن الجزء الإلهي يتناسخ في الأئمة بعد علي ـ رضي الله عنه ـ دليل واضح على الانحراف العقيدي الذي أراد ابن سبأ أن يلبس به على المسلمين، لا يمكن أن يكون ابن سبأ قال هذا القول، وأصر على هذا الانحراف بحسن نية، أو بجهل لما يقول، إذ لـو قاله بحسن نية لعدل عنه عندما نبهه الإمام علي نفسه، وقال له: اتق الله، وهو يصر على مقالته، حتى قال للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: (أنت خلقت الخلق، وبسطت الرزق) وحتى هم الإمام بقتله لولا تدخل بعض الشيعة وتحذير الإمام علي من فتنة هوجاء بسبب قتله، وأشاروا عليه بنفيه إلى المدائن ففعل[1].

ولو كان قوله عن جهل لا رعوى حينما يشعر بإنكار الناس لما يقول، ولما أصر عليه، ولطلب من غيره أن يعلمه وجه الحق فيه.

لا يمكن إذن إلا أن يكون ابن سبأ قد قال ما قال بسوء نية متعمداً إفساد عقيدة المسلمين بإدخال هذه الخرافـات التي نقلها من المـزدكية والبرهمية والفلاسفة والصابئة[2].

هل يستطيع عاقل بعد ذلك أن ينكر أن ابن سبأ اعتنق الإسلام ليهدمه على رؤوس المسلمين؟ وهل يشك شاكٌ بعد ما ثبت سوء قصد ابن سبأ في أنه هو رأس الفتنة التي أطاحت بإمام المسلمين؟؟.

إن ابن سبأ يعلم تماماً أن الإمام هو نظام عقد الأمة، وهو النجاة من الفوضى والسد المنيع الذي يحول بين الأمة وبين التردي في الباطل، فلماذا لا يدمر هذا النظام ويخرق تلك النجاة ويهدم هذا السد، حتى يصل إلى مآربه وهو آمن؟؟.

ذلك هو ابن سبأ من أقواله التي نقلها المؤرخون وأهل المذاهب من غير تجن ولا افتراء ولندع للتاريخ يعد ذلك أن يحكم عليه بما يستحق.

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٧/٤٣٠).
(٢) الملل والنحل (١/١٧٥).

٢ ـ الغافقي بن حرب العكي:

هو رجل يمني الأصل من إحدى القبائل التي نزلت مصر مع الفاتحين، وأقام فيها حتى اتخذها ابن سبأ دار إقامة، وكان الغافقي رجلاً طموحاً يميل إلى الرئاسة والجاه، ويسعى لتحصيلهما بالقدر الذي يرى أنه قد يمكنه من ذلك.

عرف بن سبأ فيه ذلك الميل الشديد إلى الرئاسة، فدخل عليه من هذا الباب الواسع، واستماله إليه بالأماني التي تشرئب إليها نفسه، فجعله يتصدر قومه ويتكلم باسمهم، ولعل هذا هو الذي من أجله كان الغافقي أمير الأمراء الذين خرجوا من مصر يريدون المدينة لإشاعة الفوضى فيها[١].

ولما حاصر الثوار دار أمير المؤمنين كان الغافقي أحد الذين دخلوا الدار، وضرب الخليفة بحديدة كانت معه، وحين حال المتمردون بين عثمان والصلاة بالناس في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ كان الغافقي هو الذي يصلي بالناس[٢] كما كان هو أمير المدينة خمسة أيام بعد قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى بويع علي بالخلافة[٣].

وإننا من خلال هذا التعريف الموجز بالغافقي نرى فيه تطلعاً إلى الرئاسة وشغفاً بالزعامة يمكن من اقتناصه لمن يريد ذلك، إن حب الرجال للزعامة يجعلهم أسلسل انقياداً لمن يلوح لهم بها، وإن ميل النفوس إلى الرئاسة يحمل أصحابها على ركوب الصعاب كي يصلوا إليها، والنفوس بفطرتها تطلب الرئاسة وإن لم تكـن لها أهلاً.

٣ ـ كنانة بن بشر التجيبي:

هو الآخر من أصل يمني لأن تجيب بطن من كندة[٤] وكندة هذا أبو

---

(١) الطبري (٤/٣٣٨).
(٢) ابن كثير (٧/١٧٧).
(٣) الطبري (٤/٤٣٢).
(٤) القاموس (١/٣٩).

حي من اليمن[1] وكان كنانة مقيماً في مصر مع القبائل الفاتحة، واتصل به ابن سبأ كما اتصل تماماً بالغافقي، وهو ممن حاولوا استمالة عمار بن ياسر لما أرسله عثمان إلى مصر يستطلع له أخبارها.

وكنانة هذا أحد زعماء الفرق الأربع التي خرجت من مصر لمحاصرة الخليفة ويبدو أن عبد الله بن سبأ كان قد شحن قلبه بالحقد، وملأ نفسه بالبغضاء والكراهية على الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى روى الطبري أنه كان في طليعة من اقتحم دار عثمان، وكان يحمل في يده شعلة من نار، وأنه تسور على الخليفة داره حيث دخل من دار عمرو بن حزم وعلى أثر دخوله دخلت بقية الشعل[2].

وهو أول من اعتدى على أمير المؤمنين، فأشعره مشقصاً، وحاولت السيدة نائلة زوج الخليفة أن تدفعه عن زوجها، فقطع يدها، ثم وضع السيف على صدر عثمان واتكأ عليه حتى قتله[3].

وكان عاقبة أمره أن يسقط قتيلاً في الحرب التي دارت بين أنصار علي وأنصار معاوية في عام ٣٨ هـ عندما توجه عمرو بن العاص لفتح مصر في تلك الفترة[4].

٤ ـ مالك بن الحارث (الأشتر النخعي):

وهو من النخع إحدى قبائل مذحج اليمنية، وهو كما يصفه المؤرخون بطل شجاع، اشترك في معركة اليرموك، وهي أول ماشهده وفقد إحدى عينيه في المعركة[5].

وكان محباً للرئاسة، متزمتاً في دينه مغالياً فيه، اتخذ الكوفة مقراً له،

---

(١) نفس المرجع (٤/٣٣).
(٢) الطبري (٤/٣٨٠).
(٣) المرجع نفسه (٤/٣٩٣).
(٤) الطبري (٦/٥٨ ـ ٥٩) أوروبا.
(٥) الإصابة (٣/٤٨٢).

وتحركت نفسه للإمارة لما ولى عثمان الوليد بن عقبة على الكوفة، عندئذٍ اعتقد الأشتر أنه أكفأ من الوليد، وأنه أهل للرئاسة والولاية، وبخاصة وأنه كان رئيس قومه[1].

والذي يظهر أن الأشتر كان لا يرى الوليد أكفأ وأحق بالولاية، فطعن عليه وعلى الخليفة، وتورط مع المتورطين، ولهذا لما ظهرت الوشاية بالوليد، واتهم بما اتهم به أسرع إلى المدينة، وكأنه كان يريد أن يبعد الشبهة عن نفسه، حتى لا يرمى بتدبير المؤامرة ضد الوالي، ومن جهة أخرى كأنه كان يريد أن يري نفسه للخيفة لعله يختاره عوضاً عن الوالي المعزول.

ولست مع القائلين بأنه ذهب إلى المدينة لتوسيع الهوة بين الوالي والخليفة، أو لتوسيع الفتنة وتحريكها، وذلك لأننا لم نلمس له أثراً يذكر في تلك الفترة التي مكثها في المدينة حتى عين الخليفة سعيد بن العاصي والياً على الكوفة بدلاً من الوليد.

ولما لم يحظ بتعيين الخليفة له على الكوفة، وجدناه يسير إليها في ركاب الوالي الجديد طمعاً في أن يتحفه بعمل من وظائف الدولة فيها، وإذا كانت الولاية قد فاتته فيجب ألا يفوته كل شيء.

ولعل سعيد بن العاصي الوالي الجديد على الكوفة قد فطن لما يطمع فيه الأشتر، فاتخذه من خاصته وسماره، وحدث يوماً في مجلس الوالي أن تخاصم عبد الرحمن بن خنيس الأسدي مع الأشتر، وغضب الأشتر وجماعته وضربوا عبد الرحمن ووالده في مجلس سعيد، وعلم بنو أسد قوم عبد الرحمن، فحضروا وأحاطوا بالقصر يريدون الانتقام لصاحبيهما، ولكن الوالي تصرف بحكمة وأنهى الخلاف.

وساء هذا الاعتداء من الأشتر وجماعته أشراف الكوفة والصالحين من أهلها فكتبوا إلى الخليفة ليبعدهم عن بلدهم، فأخرجهم الخليفة إلى الشام،

---

(١) المرجع نفسه.

ولكن معاوية ضاق بهم، فأرسلهم بأمر الخليفة إلى جزيرة ابن عمر، وكان واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فحبسهم عبد الرحمن ووبخهم، وسخر منهم حتى كان يقول لهم متوعداً: (أذكروا ما كنتم تذكرون لمعاوية، وحصرهم وأمشاهم بين يديه أذلاء)[1].

وقد استطاع عبد الرحمن بن خالد أن يؤدبهم، بل ويذلهم، ويهددهم تهديداً بلغ من نفوسهم مبلغ الذعر والفزع، فإنهم لما دخلوا عليه، و فيهم الأشتر وصعصعة بن صرحان الذي تكلم على معاوية وهدده من طرفي خفي، استقبلهم عبد الرحمن استقبالاً مروعاً مخيفاً، وقال لهم: (يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من عجمته العاجمات أنا ابن فاقىء الردة، والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معي دق أنفك، ثم أمسك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى.

وكان إذا أمر بصعصعة قال له: يا ابن الخطيئة، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ مالك لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية؟؟. فيجيبونه جميعاً، نتوب الله، أقلنا أقالك الله[2].

وذهب الأشتر إلى المدينة بتوبته هو وإخوانه ليجددها بين يدي الخليفة وقبل الخليفة توبته، ورده إلى إخوانه، ولكنه لم يسترح من مشواره الطويل الذي أعلن فيه التوبة، حتى وجد بين أيدي إخوانه كتاباً من يزيد بن قيس الأرجبي الذي تزعم الثوار بالكوفة يقول لهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، واستخف الكتاب الأشتر فعصا بعد توبته، والتحق بثوار الكوفة، ونزلوا بمكان مشرف على القادسية يسمى الجرعة، وتلقوا هناك سعيد ابن العاصي وهو قادم من المدينة فردوه ولم يسمحوا له بدخول الكوفة[3].

---

(١) العواصي (ص ٩٣٠).
(٢) الطبري (٤/٣٢١).
(٣) المرجع نفسه (٤/٣٣٢).

وهناك لقي الأشتر مولى من موالي الأمير سعيد بن العاصي فقتله[1] وبلغ أمير المؤمنين أنهم يريدون أبا موسى الأشعري بدلاً عن سعيد، فأجابهم إلى طلبهم[2].

ولما خرج ثوار الكوفة قاصدين المدينة كان الأشتر قائداً لإحدى الفرق الأربع التي خرجت منها، وتخلف في المدينة بعد عودة الثوار مقتنعين برأي الخليفة[3] ولهذا يتهم بتدبير قصة الكتاب هو وحكيم بن جبلة.

وظل الأشتر متمرداً ثائراً حتى في خلافة علي فقد كان ضمن المؤتمرين لإفشال الصلح الذي كاد يتم بين علي وطلحة والزبير وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وبعد موقعة الجمل بلغ الأشتر أن علياً ولّى عبد الله ابن عباس البصرة فغضب وقال: علام قتلنا الشيخ إذن؟ اليمن لعبيد الله، والحجاز لقثم، والبصرة لعبد الله، والكوفة لعلي[4].

ولم يزل كذلك حتى أسكته علي ـ رضي الله عنه ـ بتوليته مصر اتقاء شره ـ ولكنه لم يكد يصل إلى القلزم (السويس) حتى مات بشربة عسل شربها، قيل أنها كانت مسمومة، وكان ذلك في عام ٣٨ هـ[5].

٥ ـ حكيم بن جبلة العبدي:

من قبائل عبد القيس التي كانت تسكن عمان وسواحل الخليج، وسكن البصرة بعد تمصيرها، واشتهر بالشجاعة، والأعمال الفدائية، وكان يخرج مع جيوش المسلمين الغازية.

واستغل القواد فيه تلك الجرأة فأرسلوه في محاولة لاكتشاف الهند، وتمهيد الطريق لكتائب المسلمين حتى يتمكنوا من فتحها[6].

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) الطبري (٤/٣٣٢).
(٣) المرجع نفسه (٥/١٢٠) أوروبا.
(٤) المرجع نفسه (٤/٤٩٢).
(٥) الإصابة (٣/٤٨٢).
(٦) حاشية العواصم ص: ٨٩.

لم يكتفِ حكيم بما كان يغنم في غزواته مع المسلمين، فكان يتخلف عن الجيش عند عودته ويغير على أهل الذمة، ويتنكر لهم، ويسعى في الأرض فساداً، وينهب من أموالهم ثم يرجع. وشكى الناس إلى أمير المؤمنين ما يقوم به حكيم من الإغارة على أموالهم، فكتب عثمان إلى واليه في البصرة عبد الله بن عامر أن يمنع حكيماً وأمثاله من الخروج حتى يرجع عما يقوم به من نهب أموال الناس، فحبسه[1].

ولما توجه ابن سبأ إلى البصرة نزل على حكيم بن جبلة، واجتمع عليه نفر، فنفث فيهم سمومه فأخرجه أميرها عبد الله بن عامر من البصرة[2].

وكان حكيم أحد أمراء الفرق التي خرجت من البصرة وهو أحد الذين حصبوا أمير المؤمنين وهو يخطب على منبر رسول الله ـ ﷺ ـ[3] وتخلف مع الأشتر في المدينة بعد اقتناع الثائرين برأي الخليفة وكأنه كان يدبر مع الأشتر مكيدة الرسالة التي ردت الثائرين لمحاصرة المدينة بعد اقتناعهم وعودتهم عنها راجعين إلى بلادهم.

وحكيم هذا هو الذي أنشب القتال يوم أوشك المسلمون على الصلح وحقن الدماء قبل وقعة الجمل حتى لا يتم التفاهم بين المسلمين[4] وشتم أم المؤمنين ـ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فسمعته امرأة من قومه فردت عليه قائلة: يا ابن الخبيثة أنت أولى بذلك، فطعنها فقتلها، وعندئذٍ تخلى قومه عن نصرته[5].

ولما حبس أنصار طلحة والزبير عثمان بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ عامل علي على البصرة، قال حكيم ابن جبلة: ما كنت في شك من قتالهم، ولقد ازددت فيه بصيرة، فمن كان في شك فلينصرف وخرج في سبعمائة من

---

(١) الطبري (٤/٣٢٦).
(٢) المرجع نفسه (٤/٣٢٦).
(٣) المرج نفسه (٤/٣٣٨).
(٤) المرجع نفسه (٤/٤٦٦).
(٥) المرجع نفسه (٤/٤٦٦).

عبد القيس وبكر بن وائل فقاتلهم، فضرب رجل منهم ساق حكيم فقطعها، فأخذها حكيم، ورماه بها فصرعه، ثم جاء إليه وقتله واتكأ عليه، فمر به رجل فسأله من قاتلك؟ قال: وسادتي[1].

هذه نبذة عن الشخصيات الخمس التي كان لها أكبر الأثر في التحريض على الخليفة وتأليب العامة عليه حتى قتل، بل هم الذي قاموا بحصار الرجل في بيته واقتحموا عليه داره وقتلوه، ومن لم يشترك منهم في القتل ساعد عليه وجرأ الناس على الاستهانة بأمر الخليفة والاستخفاف بسلطان الله، حتى كان الاعتداء على أمير المؤمنين شيئاً هيناً لم يحرك قلوب المسلمين، ولم يتألم من فعله إلا نفر قليل من الصالحين.

---

(١) الأوائل ص: ١٦٥.

تحليل ومناقشة

إن أول ما يلاحظه المحقق عند النظر في أحوال هؤلاء النفر الذين باءوا بوزر هذا الجرم الخطير أن أربعة منهم يمنيون وهم: عبد الله بن سبأ، والغافقي بن حرب، وكنانة بن بشر، ومالك بن الحارث، وأن واحداً منهم فقط عماني وهو حكيم بن جبلة.

ولو أضفنا إلى هؤلاء الأربعة رجلين آخرين من رجال الصف الثاني وهما: سودان ابن حمران السكوني، وخالد بن ملجم، لأصبح عدد اليمنيين ستة نفر من عشرة.

ومن هذه الإحصائية نعلم أن ابن سبأ قد استكثر من اليمانية حيث بلغ عددهم ستة من عشرة في حين أن الأربعة الآخرين كان ثلاثة منهم من بني عبد القيس وهم: حكيم بن جبلة وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد وواحد من خزاعة وهو عبد الله بن بديل بن ورقاء.

إن عبد الله بن سبأ ـ وهو من أصل يمني ـ يعلم أن أهل اليمن من أكثر العرب حمية، وحماساً وأنه من السهل استثارتهم لما فيهم من النخوة والشهامة، وبخاصة إذا كان الجانب الديني هو أساس الاستثارة، ثم هم قومه وعشيرته ولا زالت العصبيةتنبض في عروقهم.

وابن سبأ كذلك يعلم أن اليمنيين إذا غضبوا فليس من السهل إرضاؤهم، ولا كفهم عما عزموا عليه، وهم بطبيعتهم وبحكم تأثير البيئة فيهم قوم محاربون وأمثال هؤلاء كما تدل البحوث النفسية يمكن استغلالهم إلى

أبعد الحدود، وتسخيرهم لخدمة الأغراض التي يقتنعون بصحتها.

وهناك جانب آخر لا يصح أن يغفل في مثل هذه المناقشة، وهو جانب تغلب المضربين وأهل الحجاز على الجزيرة واستبدادهم بالأمر فيها دون أهل اليمن، وقد كان اليمنيون أصحاب الحضارة القديمة التي ورثوها عن أجدادهم هم أصحاب الكلمة العليا في شبه الجزيرة قبل تغلب المضريين بخاصة وعرب الحجاز بعامة على الأوضاع.

ويبدو أن ابن سبأ ـ وهو الخبير باليمنيين وطبائعهم ـ قد استغل هذا الجانب، كما استغل الوازع الديني بما أثاره من أفكار دخيلة على الإسلام، وأقنعهم بأنها من صميم الإسلام.

ونلاحظ كذلك أن الذين تسوروا على عثمان ـ رضي الله عنه ـ وارتكبوا الجريمة من اليمنيين المقيمين في مصر حيث كان يقيم ابن سبأ، وهذا مما يدل بوضوح على أن ابن سبأ كان ذا أثر فعّال في ارتكاب الجريمة، وإن لم يشهدها، وأنه شريك في إثمها وإن غاب عنها.

إن أول من دخل الدار على الخليفة كنانة بن بشر، وأول من اعتدى عليه كنانة بن بشر[1]، وهو يمني مقيم في مصر. ومن الذين دخلوا الدار وضرب الخليفة بحديدة كانت في يده الغافقي بن حرب[2]، وهو كذلك يمني مقيم في مصر. ومن الذين دخلوا الدار، ونادى في الناس قد قتلنا عثمان ابن عفان سودان بن حمران[3]، وهو أيضاً يمني مقيم في مصر. وقد أثبت المؤرخون[4] صلتهم جميعاً بابن سبأ، وتأثرهم به، وتلقيهم عنه.

ولم نعلم أحداً ممن قدموا من الكوفة أو البصرة ودخل على عثمان أو اشترك في قتله، فإنهم بمجرد وصولهم إلى المدينة اعتزلوا يقول ابن جرير:

---

(١) الطبري (٤/ ٣٨٠، ٣٩٣).
(٢) المرجع نفسه (٤/ ٣٩١).
(٣) المرجع نفسه (٤/ ٣٧٩).
(٤) كالطبري وابن الأثير وابن كثير.

اعتزل الأشتر واعتزل حكيم وكان الحصار من أهل مصر[1].

ولما استغل ابن سبأ عصبية هؤلاء الناس، ونزعتهم الدينية سواء المتطرفة منهم كما في مالك بن الحارث (الأشتر) أو المعتدلة كما في عبد الرحمن بن عديس، استغل كذلك حبهم للرئاسة وتطلعهم إليها، فجعلهم قواداً على فرق الثائرين، وأغراهم بالمناصب والجاه بعد القضاء على الخليفة.

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ: الذين اشتركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب: فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين، فأكبروا الهنات، وارتكبوا في إنكارها الموبقات.

وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يمنية على شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم في الإسلام سابقة، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد.

وفيهم الحمقى الذين استغل السبأيون ضعف عقولهم، فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة.

وفيهم المتعجلون بالرئاسة قبل أن يتأهلوا لها اغتراراً بما لهم من ذكاء خلاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة، فثاروا متعجلين بالأمر قبل إبانه.

وبالإجمال فإن الرحمة التي جبل عليها عثمان ـ رضي الله عنه ـ وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثيرين فيه، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطية لأهوائهم[2].

ونحن لو نظرنا إلى هؤلاء النفر من جانب آخر لوجدنا أنهم جميعاً لا سابقة لهم يعتزون بها، ولا تقوى عرفوا بها فينتهون إليها، وليس لواحد منهم

---

(١) الطبري (٤/٣٧٨).

(٢) حاشية العواصم ص: ٥١.

فضل يذكر به، وإذا استثنينا مالك بن الحارث (الأشتر) الذي عده ابن حيان من ثقات التابعين[1] لوجدنا من بقي منهم من رعاع الناس وسفلتهم، فهل يجوز لأمثال هؤلاء في عرف أو دين أن يكونوا هم الميزان الذي يوزن به خليفة المسلمين؟ أو يكونوا هم القضاة الذين يحاكمون أمير المؤمنين؟؟.

إن أمثال هؤلاء لا يطفون على السطح، ولا يرتقون هذا المرتقى إلا أذا فسدت الأحوال واختلت الموازين، واهتزت القيم في رؤوس العقلاء وحينئذ يكون ظهورهم دليلاً على إدبار الأمور، وتولّي الدولة، وضياع الحقوق، وإسناد الأمر إلى غير أهله.

لقد كانت المدينة مملوءة بكبار الصحابة، وشيوخ المهاجرين والأنصار، وهؤلاء كانوا ألصق بالخليفة وأقرب إليه، وأكثر اطلاعاً على ما يدور حوله، وما يعمل به في مجلسه، وهؤلاء الصحابة الأجلاء كانوا لا يخشون في الله لومة لائم ولا يثنيهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء جل أو قل، أفترى أن هؤلاء الأعلام كانوا يقرون منكراً يرونه على الخليفة، أو يداهنون في أمر لا يقره الإسلام.؟

إنني أعتقد جازماً أن الصحابة رضوان الله عليهم ـ الذين كانوا في المدينة لو رأوا على عثمان شيئاً يوجب خلعه ما ترددوا في خلعه لحظة واحدة، ولكانوا أول من يقوم بذلك لأنهم حينئذٍ يقومون بواجب يفرضه عليهم دينهم.

وإن التاريخ والثقات من المؤرخين لم يذكروا لنا صحابياً واحداً طالب بخلع عثمان بل قتله، وإن الصحابة الذين وقع بينهم وبين عثمان شيء من الخلاف أثبت المحققون[2] أن الحق كان إلى جوار عثمان في هذا الخلاف. ومع ذلك فإن عثمان ـ رضي الله عنه ـ استرضاهم، وأعطاهم حقوقهم ومنحهم كامل ثقته.

---

(١) الإصابة (٣/٤٨٢).

(٢) كالعسكري وابن العربي وابن تيمية وغيرهم.

فقد روى المؤرخون أن السبأيين لما أشاعوا ما أشاعوا في البلاد، وبلغ أمير المؤمنين مقالتهم، جمع وجوه الصحابة وأهل الرأي منهم وبخاصة أعضاء مجلس الشورى الذين رشحهم عمر ـ رضي الله عنه ـ للخلافة، وتوفي رسول الله ـ ﷺ ـ وهو عنهم راضٍ، وعرض عليهم الأمر وطلب منهم الرأي، وقال: «أنتم شركائي، وشهود المؤمنين فأشيروا عليّ».

فأشاروا عليه بأن يرسل رسلاً إلى الجهات المختلفة يستطلعون الأخبار، ويأتونه بحقيقة الحال، واقتنع الخليفة بالرأي، واختار من الصحابة أربعة وهم ولا شك محل ثقته، ولولا ذلك ما اختارهم ليكونوا مندوبين عنه وعيوناً له على أمرائه.

وهؤلاء الأربعة هم: محمد بن مسلمة للكوفة، وأسامة بن زيد للبصرة، وعبد الله بن عمر للشام وعمار بن ياسر لمصر(١).

إن اختيار الخليفة لعمار ـ رضي الله عنه ـ ضمن هؤلاء الأربعة لأكبر دليل على أن الخليفة لم يكن بينه وبين عمار خلاف شخصي، ولا خصومة ذاتية، و إنما كان الخلاف بسبب تأديب الخليفة لعمار على بادرة بدرت منه مع عباس بن عتبة بن أبي لهب كما روى الطبري(٢).

ولهذا لم يترك الحادث في نفس عثمان أي أثر، بل نسيه على علاته، ووقع اختياره على عمار ليكون محل ثقته في نقل أخبار مصر إليه.

وعاد الرسل من الجهات التي أرسلوا إليها، وكان جواب الجميع (ما علمنا عن أمرائك إلا خيراً)(٣) وتخلف عمار في مصر، فلم يرجع على الخليفة، وأرسل عبد الله بن أبي سرج يشكو عماراً إلى الخليفة ويبين له أن دعاة الشر قد التفوا حوله واستمالوه.

وأرسل الخليفة إلى عمار، وأحضره إلى المدينة معززاً مكرماً وعاتبه

---

(١) الخليفة المفتري عليه ص: ٦٨.
(٢) (٤/٣٤٦).
(٣) الكامل (٣/١٥٥).

قائلاً: (يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أن قذفك، وغضت عليّ أن أخذت لك بحقك وله بحقه، اللهم قد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة، اللهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ولا أبالي[1].

إن أقصى ما طالب به أجلاء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الخليفة هو أن يثبت براءته للعامة وأن يستغفر الله مما وقع منه من خطأ، ولم يعارض عثمان في شيء من ذلك، فقد وقف على المنبر، وخطب الناس خطبة بين فيها رأيه فيما وقع من الأحداث، وفند شبهة المتقولين، وحذر الثائرين عاقبة ما وقعوا فيه، وتاب إلى الله واستغفره من كل خطأ يحتمل أن يكون قد ارتكبه[2].

فماذا يريد الثائرون من الخليفة؟ لقد أثبت لهم كذب دعواهم، وأوضح أن كل ما يتكلم به الناس افتراء وهراء، وما صح فهو فيه مقتد بصاحبيه، لم يجامل قريباً، ولو حصل منه ذلك لكان أولى الناس به أخوه الوليد، فقد عزله لما ثبت عنده بالشهود أنه شرب الخمر، وحده الحد الشرعي[3]، ولم يولِ غير كفء ولو فعل لكان أحق الناس بذلك ربيبه محمد بن أبي حذيفة، لقد طلب محمد هذا من الخليفة أن يوليه، فأجابه بقوله: «يا بني لو كنت رضا لاستعملتك، ولكن لست هناك[4].

إن قصة محمد بن أبي حذيفة هذه تنفي كل تهمة توجه إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ بالنسبة لعماله وولاته، إذ لو كان عثمان يولي أقاربه لأنهم أقاربه لما حرم محمد بن أبي حذيفة، وهو ربيبه اليتيم، وهو يعلم حاجته الماسة إلى باب يكسب منه رزقه، ولكننا رأينا عثمان يرد ابن أبي حذيفة لأنه ليس كفؤاً لأن يكون والياً على المسلمين.

لقد تحمل عثمان بسبب عدم تولية محمد بن أبي حذيفة متاعب لم

---

(١) تهذيب التاريخ (٧/٤٢٩).
(٢) الطبري (٤/٣٥٥).
(٣) الخليفة المفتري عليه ص: ٧٩.
(٤) المرجع نفسه ص: ٩١، الكامل (٣/٢٦٥).

يتحملها أحد، فقد كان محمد يؤلب عليه، ويحرض على خلعه، ويزور الكتب على لسان أمهات المؤمنين يدعو فيها إلى الثورة على عثمان[1].

إن عثمان قد ضحى بدمه، وقدم روحه فداءً لمبادئه، وكان باستطاعته أن يسكت هذا الربيب الأبق بتوليته عملاً من أعمال الدولة، ولكن هيهات وهو غير كفؤ في تقدير عثمان. كان باستطاعة الخليفة أن يتقي شر ذلك المحرض الأثيم، وأن يصطنعه يداً له يدفع به الثائرين لو أنه كان يستبيح لنفسه تولية غير الأكفاء.

أفبعد هذا الموقف الجريء، وبعد هذه التضحية العظيمة يستطيع إنسان أن يثبت أن الخليفة كان يولي أقاربه ولو كانوا غير أكفاء.؟؟

لقد ألب المتمردون الأغرار من الناس على الخليفة، وخرجوا بهم في فرق منظمة، من مصر ومن البصرة ومن الكوفة، وكل جماعة منهم في أربع فرق، على كل فرقة قائد، وساروا جميعاً في موسم الحج يظهرون غير ما يضمرون، ويخفون خلاف ما يعلنون، واجتمعوا في المدينة.

نزل أهل البصرة بذي خشب ونزل ثوار الكوفة بالأعوص، كذلك نزل أهل مصر بذي المروة و دخلوا المدينة، وأتوا بيت الخليفة، وخرج إليهم عثمان ـ رضي الله عنه ـ واستمع لما يوجهونه إليه من التهم، ورد عليهم بحجج أثبتت لهم براءته، فحملوا رؤساء الفتنة على الرضا والتسليم، وارتحلوا عن المدينة راجعين إلى بلادهم.

إن أي إنسان يقرأ هذا الكلام وهو كلام مجمع عليه من المؤرخين ـ لم يشذ منهم أحد ـ لا يتصور إلا أن هناك مؤامرة، إذ يستحيل أن يخرج جماعة من مصر وجماعة من البصرة وجماعة من الكوفة في وقت واحد، ويقصدون المدينة متظاهرين بالحج ثم يحاصرون الخليفة ويوجهون إليه تهماً يوافق عليها أهل هذه الأمصار جميعاً، دون أن يكون هناك اتفاق مسبق.

---

(١) المقريزي (٣/٢٦٤).

إن الصدفة وحدها عاجزة عن أن تخرج تلك الرواية بهذه البراعة الفائقة وإن محض التوافق غير قادر على أن يحبك تلك القصة بهذه الدقة الرائعة.

هل الصدفة وحدها قادرة على إخراج أربع فرق من كل مصر من الأمصار الثلاثة؟ وهل الصدفة وحدها قادرة على أن تخرج الجميع في وقت واحد؟؟ وإذا صح هذا فهل يمكن أن تلقن الجميع تهماً واحدة يوجهونها إلى شخص واحد؟؟؟.

إن الشواهد التاريخية كلها، والأحداث الواقعية التي لم يختلف فيها اثنان تدل بوضوح على مؤامرة محبوكة الأطراف، محكمة التدبير، تقف وراءها رؤوس محرضة مدفوعة، لا تريد إلا الفتنة، ولا تبغي إلا التخريب.

ولهذا لما اقتنع الثائرون بما ذكر الخليفة، ورجعوا إلى بلادهم راضين عنه وعن ولاته عمد المحرضون إلى طريق ملتو فسلكوه، ودبروا خطة خبيثة لإعادة الثائرين، فزوروا كتاباً على عثمان، وأرسلوه مع غلام، زعموا أن عثمان كتبه لعامله على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرج يثبته فيه على مصر، ويطلب منه قتل الثائرين.

وقصة الكتاب هذه قصة تحمل أدلة كذبها بين سطورها، فلسنا في حاجة للبحث عن الأدلة التي نثبت بها تزويرها واختلاقها.

يذكر الطبري أن المصريين الثائرين اقنعهم الخليفة بتفنيد الشبهة التي كانت عندهم ثم رجعوا راضين، وبينما هم في الطريق إذ هم براكب يتعرض لهم، ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم.

فقالوا له: مالك؟ إن لك لأمراً، ما شأنك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأنهم لما قرأوا الكتاب عادوا إلى المدينة، وحاصروا بيت عثمان[1].

---

(١) الطبري (٤/٣٥٥).

إن بعض المؤرخين يحاولون تبرئة عثمان ـ رضي الله عنه ـ من تحمل تبعة هذا الكتاب، وفي نفس الوقت يحملون مروان بن الحكم وزره ومسؤوليته، وهم في ذلك يتهمون بغير دليل، ويدينون بغير حجة.

وفي اعتقادي أن الكتاب مزور من أساسه، وليس هناك لدى أي مؤرخ أو كاتب دليل يستند عليه في صحة نسبته إلى عثمان أو إلى مروان.

أما عثمان فقد أنكر علمه بالكتاب، وحلف لهم ما كتب ولا علم ولا أمر بكتابته، فصدقوه، واتهموا مروان، وأما مروان فإنه رجل أريب حكيم، وسياسي لبق، ومثل مروان في كياسته وفطنته لا يورط نفسه في مثل هذا الأمر بهذه الصورة المكشوفة المفضوحة.

إن مروان لو أراد أن يفعل ذلك لحبك الموضوع، واتخذ لكل شيء من الحيطة ما يبعده عن الشبهة إذا لم تنجح الخطة، لم يكن مروان غراً حتى يختار لحمل الرسالة مثل ذلك الغلام الأبله.

إن مروان يعلم أن الرسالة خطيرة في مثل هذا الموضوع، وإن فشل المهمة سيؤدي حتماً إلى قتله وقتل الخليفة فكان عليه للإبقاء على نفسه، ورغبة في إنجاح قصده، أن يختار غلاماً فطناً ليحمل الرسالة، وأن يسيره في غير طريق الثوار ليضمن وصوله، ويثق من سلامته، وأن يحذره من التعرض لهم ولو طلبوه حتى لا تنكشف خطته.

أما أن يختار غلاماً يعرفه الناس أنه من غلمان الصدقة، ويركبه بعيراً من بعران الصدقة، ثم يسيِّر الغلام في نفس طريق الثوار، ويتعرض لهم ثم يفارقهم ثم يتعرض لهم، ثم يفارقهم، وكأنه يقول لهم خذوني واسألوني، ولما سألوه يقول بصراحة: أنا غلام أمير المؤمنين إلى عامله بمصر هكذا بهذه البلاهة والحماقة، فهذا هو الشيء الذي لا يستطيع العقل تصديقه مهما حلف على صحته الحالفون، وبرهن على صدقه المؤيدون.

ماذا نفهم إذن من قصة الكتاب؟؟.

إن قصة الكتاب ليست إلا طرفاً من أطراف المؤامرة الملعونة ابتكرها

المتآمرون لما أحسوا بفشلهم في الزحف الأول على دار الخليفة ولعلهم خافوا عاقبة اقتناع الناس برأي الخليفة، وظنوا أن الدائرة ستكون عليهم، إنهم دفعوا الناس إلى ما ساروا إليه باسم الحرص على الدين، وحرضوهم على الهجوم على الخليفة بحجة أنه خالف تعاليم الإسلام، فإذا انكشفت الحقيقة، وأدرك المخدعون أن هؤلاء المحرضون يعبثون بهم، ويتلاعبون بعقولهم، ويغامرون بدينهم فماذا تكون النتيجة؟ لا شك أنهم إن لم يثوروا لدينهم فسيثورون لكرامتهم وحينئذٍ تكون الضحية هم رؤوس الفتنة.

لهذا حرص المتآمرون على تهييج العائدين المقتنعين، ولهذا اخترعوا الكتاب ليكون ذريعة يتذرع بها الثائرون.

ويظهر من تتبع أحداث التاريخ في نفس القصة، وفي غيرها أن هذا الكتاب ليس أول كتاب يزور على المسؤولين، فقد زورت كتب قبله، وزورت كتب معه لقد زور معن بن زائدة كتاباً على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأخذ به مالاً من خراج الكوفة[1].

أما في الثورة على الخليفة المظلوم فقد زورت كتب كثيرة، زور محمد ابن أبي حذيفة كتاباً على لسان أمهات المؤمنين[2]، وزور غيره كتباً على لسان طلحة والزبير وعلي ـ رضي الله عنهم[3] ـ

ولقد روى المؤرخون أن هؤلاء الذين كتبت الكتب على ألسنتهم كانوا كلما واجههم أحد بذلك أنكروا وحلفوا أنهم ما كتبوا شيئاً.

روى ابن عساكر والمدايني أن مروان ابن الحكم قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ هذا عملك كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج على عثمان، فقالت: والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا.

---

(١) الأوائل ص: ١٤١.
(٢) المقريزي (٣/٢٦٤).
(٣) ابن كثير (٧/١٧٣).

فكانوا يرون أنه كتب على لسانها وعلى لسان علي كما كتب على لسان عثمان[1] ويقول ابن كثير: وزورت كتب كثيرة على لسان الصحابة الذين في المدينة، وعلى لسان علي وطلحة والزبير[2].

فقصة الكتاب إذن قصة ملفَّقة موضوعة، لا يلتفت إليها محقق، ولا يأبه بها عاقل.

وأحب هنا أن أنظر إلى الموضوع من جانب آخر، ذلك هو أن الثوار لما اقتنعوا بصدق الخليفة حين حلف لهم أنه لم يكتب الكتاب ولم يأمر بكتابته ولم يعلم به، اتهموا مروان وطلبوامن الخليفة تسليمه لهم، وأصروا على ذلك، ومع ذلك فإننا نرى الضحية هو الخليفة لا مروان، أفلا يدل ذلك على أن المقصود هو تقويض نظام الإسلام، وإثارة الفوضى بين المسلمين؟؟.

وخلاصة القول أن الثوار كانوا مدفوعين بأوهام اختلقها ابن سبأ، وصدقها أعوانه واستغلها بعض المأفونين الذين أمَّلوا من ورائها مغنماً وحظاً.

ألم ترَ إلى ابن حمران لما دخل بيت الخليفة، وقتل أمير المؤمنين، يغمز السيدة البارة نائلة، زوج الخليفة في فخذها، ويقول: (قاتلك الله! ما أعظم عجيزتها؟)[3] ثم ينادي هو وأتباعه بعد قتل الخليفة محرضاً الثوار على انتهاب بيت مال المسلمين[4].

هل يظن عاقل بعد ذلك أن الثورة كانت غضبة للإسلام؟ وأن الثوار لم يخرجوا إلا لرد الخليفة إلى حقيقة الإسلام؟.

هؤلاء هم الثائرون على الخليفة، سفلة في أقوامهم، رعاع بين قبائلهم لا خلق ولا دين ولا سابقة ولا علم، فكيف نستمع إلى حديثهم، ونخدع بمفترياتهم؟؟

---

(١) الخليفة المفتري عليه ص: ٩٠.
(٢) البداية والنهاية (٧/١٣٧).
(٣) الطبري (٤/٣٩١).
(٤) ابن الأمير (٣/١٧٩).

نهاية مؤلمة

كنا نعتقد أن الثوار قد غادروا المدينة بغير رجعة حين أقنعهم الخليفة بسلامة موقفه، وفنَّد لهم التهم التي وجهها المتمردون إليه ولكن المتمردين خافوا على أنفسهم عاقبة اكتشاف مؤامرتهم، فدبروا قصة الكتاب المزعومة ليبرروا عودتهم إلى المدينة وهناك يرتكبون جريمتهم النكراء.

لا شك أن هؤلاء المدفوعين على الخليفة لو عادوا إلى بلادهم، وحدثوا الناس بما انكشف لهم من براءته وكذب المتمردين لأحبطت المؤامرة من أساسها ولأصبح المتآمرون في حاجة ماسة إلى حيلة جديدة يبررون بها خروجهم على الخليفة المظلوم.

وأغلب الظن أنهم حينئذٍ لن يستطيعوا الإفلات من أيدي المسلمين، وأغلب الظن كذلك أنهم سيكونون عرضة لأشد أنواع العقاب جزاء ما اقترفوا من الافتراء والبهتان.

إنني أعتقد أن المتمردين قد أحسوا بخطورة الموقف، وأدركوا أن عودة المؤيدين لهم مقتنعين بما قال الخليفة، سيترتب عليها أمور قد تؤدي إلى الإطاحة برؤوسهم. فأجمعوا أمرهم على تنفيذ الجريمة، ومهما كانت النتائج، فإن المصير أصبح ماثلاً أمام أعينهم، وبدلاً من أن يلقوه بعد العودة إلى بلادهم فليلقوه هنا، وقد تنجح المكيدة فينجون من المصير المحتوم.

وفوجيء أهل المدينة بعد ليالٍ خلت من انصراف الناس عنها بعودة الثائرين، وقد سمعت لهم أصوات في شوارع المدينة تنذر بشر مستطير،

وقصد الجميع دار عثمان، ومنعوا الناس من الدخول إليه وحاصروا بيته حصاراً شديداً.

وذهب الناس إلى المتمردين وسألوهم عن سبب عودتهم إلى المدينة بعد انصرافهم عنها مقتنعين، فذكروا قصة الكتاب.

والقصة في حد ذاتها لا تثبت أمام النقد، ولا تقوى على الصمود أمام الواقع الذي اعترف به الثائرون أنفسهم، كما بينت من قبل.

إن قصة الكتاب بإجماع المؤرخين وقعت لأهل مصر وحدهم، ولم يكن هناك كتاب آخر موجه إلى البصرة ولا إلى الكوفة، ومع فرض صحة الكتاب وعثور أهل مصر عليه مع حامله فمن الذي أخبر أهل البصرة وأهل الكوفة بقصة الكتاب حتى يرجعوا جميعاً، ويدخلوا المدينة في وقت واحد؟؟.

إن رجوع الثائرين من أهل مصر وأهل البصرة والكوفة في وقت واحد، ودخولهم المدينة في زمان واحد، وكلهم متذرعون بالكتاب دليل قاطع على كذب الكتاب.

إن أهل البصرة والكوفة أجابوا عندما سئلوا عن سبب عودتهم بأنهم أتوا لنصرة إخوانهم المصريين، فمن الذي أخبرهم بما وقع لإخوانهم من أهل مصر حتى يرجعوا لنصرتهم؟؟.

ولو فرضنا أن أهل مصر قد أرسلوا يخبرونهم بالكتاب، ويستنجدون بهم، فمتى وصل الرسول إليهم؟ وكيف أتى لهم أن يصلوا في وقت واحد إلى المدينة، وقد سار بعضهم شرقاً إلى العراق، وسار بعضهم غرباً إلى مصر، وقطعوا كلهم مراحل عن المدينة؟؟.

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب، معلقاً على ما حدث: ومعنى هذا، أن الذين استأجروا الراكب ليمثل دور حامل الكاتب أمام القوافل المصرية، استأجروا راكباً آخر خرج من المدينة معه قاصداً قوافل العراقيين ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان إلى عبد الله بن سعد في

مصر بقتل محمد بن أبي بكر[1].

والذي يظهر لي أن هذا لم يحدث، ولم يكن هناك رسول إلى العراقيين ولو صح ذلك لذكره المؤرخون كما ذكروا الغلام الذي قبض عليه المصريون، بل لاحتج العراقيون أنفسهم حين سألهم علي ـ رضي الله عنه ـ كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا[2]؟.

وإني أرجح أن يكون زعماء الفرق الثلاث، لما رأوا اقتناع الناس وانصرافهم أبرموا الأمر فيما بينهم قبل أن يخرجوا من المدينة وتواعدوا وقتاً محدداً يتوافون فيه، ثم تظاهروا بالعودةمع المقتنعين، حتى إذا حان الأجل المضروب بينهم قفلوا إلى المدينة جميعاً، أما أهل مصر فتذرعوا بالكتاب المزعوم، وأما أهل العراق فبحجة منع إخوانهم والانتصار لهم.

وإن قول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ كيف علمتم يا أهل الكوفة، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة.

وإن إجابة العراقيين على هذا السؤال بقولهم: (فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا)[3] دليل قاطع على أن المؤامرة مدبرة وليس هناك كتاب ولا شيء مما تذرع به المتمردون.

يقول الشيخ صادق عرجون: والحق أنه لم يكن هناك كتاب بقتل أحد، لا من عثمان ولا من مروان، ولا كان هناك غلام أسود أو أبيض، ولا كان هناك ناقة ولا جمل ولكن الذي كان إنما هو تدبير شيطاني خبيث، وكيد أثيم، وتآمر يهودي من حزب السبأيين أشياع رأس الشر، وجرثومة الفساد ابن

---

(١) حاشية العواصم ص: ٩٦.
(٢) الطبري (٥/١٠٥) طبع أوروبا.
(٣) الطبري (٥/١٠٥) طبع أوروبا.

السوداء عبد الله ابن سبأ اليهودي لتقويض الخلافة الإسلامية، وإشعال نار الفتنة، وهدم بنيان الإسلام[1].

تكالب الثائرون على دار الخليفة، ومنعوا وصول الماء إليه، وأحرقوا عليه الباب وكان ـ رضي الله عنه ـ قد ألزم المسلمين بحق الطاعة له ألا يدافع عنه أحد ممن كان عنده حرصاً على أرواح المسلمين، ومحافظة على دمائهم أن تراق هدراً[2].

وكان عنده في الدار الحسن والحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وزيد بن ثابت وأبو هريرة، وكانوا جميعاً مستعدين للدفاع عنه وحمايته، ولكنه ـ رضي الله عنه ـ عزم عليهم في وضع سلاحهم وخروجهم ولزوم بيوتهم، وكان الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ آخر من خرج من عنده[3]. وتسور الثائرون دار الخليفة، وقتلوه قبل أن يغضب المسلمون لخليفتهم ويهبوا للدفاع عنه، وكان المسلمون والخليفة نفسه لا يتصورون أن يصل الأمر إلى حد القتل وسفك الدماء، بل كانوا يعتقدون أن الثائرين سيكتفون بخلع الخليفة حيث لا يوجد سبب يبرر القتل بين الأسباب التي تذرع بها المتمردون.

ولعل الخليفة عزم على من كان عنده من المسلمين بالخروج وعدم القتال حتى لا يسبب وقوفهم دون الخليفة بسلاحهم إلى مزيد من التوتر المفضي إلى إراقة الدماء، ولعله كذلك كان يعتقد أن في صرف هؤلاء الذين جاءوا للدفاع عنه تخفيفاً لحدة التوتر، فتضعف بذلك عزيمة الثائرين عن القتال حتى ولو جاءوا من أجله لأنهم حينئذٍ لا يجدون من أعوان الخليفة من يدخلون معهم في معركة تؤدي إلى الاعتداء على الخليفة نفسه.

ولعله أراد بإخراج من كانوا عنده، ورفض المعونة التي عرضها عليه

---

(١) الخليفة المفترى عليه ص: ٨٧.
(٢) العواصم من القواصم ص: ٩٩.
(٣) المرجع نفسه ص: ١٠١.

كبار الصحابة كالزبير ابن العوام، وأبي هريرة، وزيد بن ثابت، أن يرى الثوار أن الخليفة القادر على دفعهم ـ إذا أراد ـ بجيوش المسلمين، قد كفّ يده عنهم، وأنه يواجههم وحده، فيستحون، ولا يجردون له السلاح، ويمسكون عن القتل والقتال، ولعله أراد غير هذا وذاك.

إن المسلمين لو كانوا يعلمون أن الثورة ستفضي إلى قتل الخليفة ما أسلموه، ولدافعوا عنه بكل ما يملكون، ولن يستطيع ألف أو أربعة آلاف غرباء أن يتغلبوا على عشرين ألفاً كانوا يسكنون المدينة في ذلك الحين[1].

ومهما يكن من أمر فقد قضي الأمر، واستغل الثوار بدناءة وخسة وجود الخليفة أعزل إلا من الإيمان، وحيداً إلا من زوجه البارة وبعض عبيده، ودخلوا عليه داره التي طالما آوت المستضعفين، وردت فيها جوعة الجائعين، وسلوا سيوفهم، وقتلوه في وحشية وضراوة، لم يحترموا المصحف الذي كان بين يديه، ولم يرقّوا لشيخوخته، ولم يرحموا ضعفه ووحدته.

لقد ضاعت كل المحاولات التي بذلها الخليفة لحقن الدماء هباء، ولكنه حقن بدمه الزكي دماء لأمته كان يحتمل أن تهدر هدراً، وأن تضيع سدى.

لم يكن قتل الخليفة هو غاية الثوار كما يزعم كثير من السطحيين، وإلا لهان الأمر وسكنت الفتنة واستبدل خليفة بخليفة، وعادت المياه إلى مجاريها، ولكن غاية الثورة كانت أبعد غوراً من قتل الخليفة، وأعمق أثراً من الاستبدال به غيره.

وماذا يجني الثوار من قتل الخليفة إذا اجتمع المسلمون على خليفة آخر؟، وكيف يتحقق لهم هدم هذا الصرح الشامخ إذا هدأت العاصفة، وتمكن المسلمون من رأبِ صدعهم وجمع شملهم، وعادوا كما كانوا أخوة متحابين؟؟.

---

(١) المرجع نفسه ص: ١٠٢.

إنه غاية الثوار كانت ترمي إلى هدم حقيقة الإسلام، وإلى النيل من عقيدته السمحة، وإلى تشويه مبادئه الهادية، وقد تناولها ابن سبأ بمفترياته المدمرة وحاول أن يجهز عليها بكتائبه المسلحة ولهذا لما بدأت محاولات الصلح بين علي ـ رضي الله عنه ـ وبين طلحة والزبير قبل وقعة الجمل تأخذ وضعها الطبيعي وتقاربت النفوس، وجدنا ابن سبأ يعقد مؤتمراً من رؤساء حركته، ويتبادل معهم الآراء، ويستمع إلى رأي كل منهم، ثم يرده لضعفه، وفي النهاية يقترح على أتباعه أن يبدأوا القتال عندما يتواجه الفريقان حتى يفسدوا خطة الصلح التي كاد أن يصل إليها الطرفان[1].

وهكذا انتهت حياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ هذه النهاية المؤلمة وهكذا حقق الثوار ـ أو كادوا ـ خطوات حاسمة في طريق مآربهم، ولكن الإسلام كان أقوى من كل هذه الهجمات، وأعظم من كل هذه التحديات، وأقدر على الصمود والثبات فقد مات ابن سبأ وبقي الإسلام، وأما أفكاره المدمرة فقد عاشت في فئة تنبذها المسلمون لقبيح اعتقادها، وسوء تصرفاتها، وقيض الله للإسلام علماء نفوا عنه خبثها، وأظهروا للأمة فسادها فاستمسكت بعقيدة التوحيد وتنازل الحسن بن علي عن حقه لجمع كلمة المسلمين وتضييع الفرصة على الانتهازيين، واجتمع المسلمون على خليفة واحد جمع كلمتهم وأعدهم للجهاد وواجه بهم أعداء الإسلام والمسلمين.

---

(١) الطبري (٤/٤٩٤).

الفصل الرابع

أثر الثورة في المدينة

أثر الثورة في المدينة

ظلت المدينة المنوّرة زهاء خمس وثلاثين سنة عاصمة للدولة الإسلامية وشاركت المسلمين شدتهم ورخاءهم، وعسرهم ويسرهم، وعاصرت أعظم تطور حضاري عرفته الجزيرة العربية في تاريخها الطويل، ونمت نمواً طبيعياً لا طفرة ولا انتكاسة حتى بلغت أوج مجدها.

وواكبت المدينة في تلك الفترة التقدم الذي أحدثه الإسلام في العالم، فلم تتخلف عن الركب ولم تشذ عن الطريق، وازدهرت فيها الحياة بأوضاعها المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ واستمتع الناس بأمن سابغ لم يكن لهم به معرفة سابقة، ونعم الناس برخاء ليس لهم به عهد، وأصبحت بذلك المدينة محط الأنظار كعاصمة لأعظم دولة عرفها التاريخ في القديم والحديث.

ولم تزل المدينة تحكم وتوجه، وتخطط وتنظم، وتقود الجيوش وتفتح البلاد ولا يزال عهدها الميمون في علـو وارتفاع حتى فشت فيها الفتنة، واشتعلت نارها.

عندئذٍ توقف المد الذي كان يدفعه الخلفاء ويشجعون على مواصلة السير فيه، وتوقفت بالتالي معالم الحياة المزدهرة النامية، وتلبد الجو بسحب كثيفة حالت بين الناس وبين رؤية النور الذي كانوا يهتدون بضوئه ليروا طريقهم إلى التقدم والمجد.

ورغم الآثار السيئة التي خلفتها الثورة النكدة في جميع أنحاء الدولة

القريبة منها والبعيدة إلا أن تلك الآثار كانت أشد وأنكى على العاصمة الإسلامية المدينة المنوّرة ـ من أي بقعة أصابتها الفتنة.

وقد تأثرت الحياة في المدينة المنوّرة بتلك الفتنة من جوانبها المختلفة، إلا أن التأثير في الجانبين السياسي والاقتصادي كان أكثر وضوحاً، وأعظم فداحة من غيرهما.

التحويل السياسي:

بدأت المدينة حياتها هي الدولة وهي عاصمة الدولة، وذلك حين لم يكن في الجزيرة كلها قرية تدين بالإسلام غيرها، وظلت كذلك ثمانية أعوام صامدة تتحدى مكة بجبروتها وكبرياء أهلها، ودخلت معها في صراعات متعددة، وكانت في كل مرة تثبت جدارتها وتفوقها، ووقفت الجزيرة كلها تترقب نتيجة هذا الصراع، وتنتظر لمن تكون الغلبة فيه فلما كان شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة دخلت المدينة في تحد سافر وصراع عنيد مع مكة في معركة فاصلة، وكانت الغلبة للعاصمة الجديدة وأذعنت مكة لسلطان المدينة، وبالتالي خضعت الجزيرة العربية كلها للعاصمة الإسلامية.

وأصبحت المدينة قبلة الأنظار ومحط الآمال، وغادر الرسول مكة عائداً إلى معقل المسلمين الأول، يدير من خلالها شؤون الجزيرة، ويمد نفوذها أحياناً إلى خارجها.

وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ انتكست الجزيرة، وأوغلت في الردة ولم تعترف بسلطان المدينة عليها، ولكن الخليفة الأول أخضعها طوعاً وكرهاً لسلطان العاصمة وقضى على هذا التمرد، ولم يفارق ـ رضي الله عنه ـ الحياة حتى أعاد للمدينة نفوذها ومكانتها في النفوس.

وفي عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ امتد سلطان المدينة على أكبر وأوسع رقعة عرفها التاريخ، تصرف أمورها عاصمة واحدة، وذلك حين ضمت الدولة الإسلامية بلاد الفرس وبلاد الروم تحت سلطة خليفة المسلمين.

لقد بلغت رقعة الدولة الإسلامية حينئذٍ من بحر قزوين وأذربيجان شمالاً إلى المحيط الهندي وبحر العرب جنوباً، ومن بحر عمان ومكران وسجستان شرقاً إلى البحر المتوسط ومصر والنوبة غرباً.

إنها رقعة لم تقع في حيازة دولة واحدة من قبل، وكان الخليفة في المدينة هو صاحب الكلمة العليا في تلك الرقعة الواسعة يحرك الجيوش بإرادته ويرسم سياسة البلاد مع مستشاريه وهو في مقر خلافته، ويعين الولاة أو يعزلهم بحسب ما يرى فيه مصلحة الدولة والمحافظة على حقوق المسلمين.

وكثيراً ما كان الخليفة وهو في المدينة يشارك في وضع الخطة الحربية، ويطلب من قواده موافاته بأحوال البلاد التي يفتحونها، وكثيراً ما كان القواد في أماكنهم النائية يطلبون رأي الخليفة في موقف من المواقف التي تحتاج إلى رأي ومشاركة.

وفي عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ازدادت الرقعة اتساعاً وانضمت بلاد شمال إفريقيا حتى تونس إلى الدول الإسلامية، وتوغلت جيوش المسلمين في الشمال الشرقي حتى وصلت طبرستان، وأعادت البلاد المتمردة مثل مرو وهراة ونيسابور إلى سلطة الخليفة في المدينة، كذلك دانت بلاد ما وراء النهر على يد الأحنف بن قيس لسلطة المدينة[1].

وظل خليفة المسلمين في المدينة يدير شؤون هذه الرقعة الواسعة، ويصرف أمورها فيعقد قواده الصلح مع من يريد الصلح بأمر من الخليفة، يفتحون البلاد التي لم تذعن لهم عنوة بتصريح من الخليفة وهكذا.

ومن هذا العرض السريع نتبين مدى ما وصلت إليه سلطة الخليفة في المدينة المنوّرة ونعلم مدى ما كانت تتمتع به المدينة من السلطان السياسي على تلك الرقعة الهائلة التي لم تذعن قط لدولة قبل الدولة الإسلامية.

---

(١) تاريخ الإسلام (١/٢٦٢).

فلما كانت الفتنة العمياء، وقتل الخليفة، وغضب المسلمون لما حدث، وأخذ فريق منهم يحرضون على الأخذ بثأر عثمان، واجتمع هؤلاء المطالبون بدم عثمان في بلاد العراق، عندئذٍ قرر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يتوجه إلى العراق بمن يطيعه من المسلمين.

يقول الدينوري: ثم إن علياً ـ رضي الله عنه ـ نادى في الناس بالتأهب للمسير إلى العراق[1] ويبدو أن الخليفة قد اتخذ هذا القرار تحت ضغط ظروف خارجة عن إرادته نجملها فيما يلي:

١ ـ إن علياً ـ رضي الله عنه ـ وهو خليفة المسلمين كان يرى من حقه قتال من يخرج على بيعته ويقف عقبة في طريقه، وقد وقف طلحة والزبير وأهل البصرة عقبة، ولم يبايع أهل البصرة علياً.

فانتدب على الناس لقتالهم، فاختلف عليه أهل المدينة وبخاصة كبار الصحابة لما رأوا أنه يندبهم لقتال المسلمين[2].

٢ ـ إن علياً كان يرى أن أنصاره وأعوانه بالعراق، وأنهم هم الذين سيقفون إلى جواره وبخاصة بعد أن قعد عن نصرته أهل المدينة، وأن لديهم من الأموال ما يعينه على قتال عدوه.

٣ ـ كان علي يعتقد أن أهل الشام سيثبون على العراق، وأنه لا بدّ أن يكون قريباً منهم حتى يردهم إذا وثبوا.

وهذه الأسباب التي أجملناها هنا هي التي ذكرها الدينوري في الأخبار الطوال حين يقول: ولما همَّ علي ـ رضي الله عنه ـ بالمسير إلى العراق، اجتمع أشراف الأنصار، فاقبلوا حتى دخلوا على علي، فتكلم عقبة بن عامر ـ وكان بدرياً: فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ والسعي بين قبره ومنبره أعظم مما نرجو من العراق فإن كنت

---

(١) الأخبار الطوال ص: ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص: ١٤٢ ـ ١٤٣.

إنما تسير لحرب الشام فقد أقام عمر فينا، وكفاه سعد زحف القادسية، وأبو موسى زحف الأهواز، وليس من هؤلاء رجل إلا ومثله معك والرجال والأيام دول.

فقال علي: إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها[1].

وهذا الكلام من أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - يدل بوضوح على أنه قد قرر قراراً لا رجعة فيه بنقل مقر الخلافة إلى العراق، وإلى الكوفة بالذات والتحول عن المدينة.

لقد كان الخليفة يستطيع أن يرسل جيوشه لتحارب البغاة الخارجين عليه ويبقى هو في المدينة مقر الخلافة، ويهدي قلوب المسلمين، ولئن خالفه بعض أهل المدينة فقد أطاعه منهم كثيرون، قال المطلب بن زياد: شهد مع علي يوم الجمل مائة وثلاثة وثلاثون بدرياً، وسبعمائة من الصحابة - رضي الله عنهم[2].

وهذا يدل على أن المدينة لم تمتنع عن بيعة علي، ولم تظاهر غيره عليه، بل إنها كانت له عوناً ونصيراً، ولهذا فإني أرجح أن يكون قرار أمير المؤمنين بنقل مقر الخلافة إلى الكوفة كان تحت تأثير الدسائس السياسية التي لم تنته بعد، والتي ما زالت تواصل مكائدها للمسلمين.

أغلب ظني أن مالك بن الحارث (الأشتر) كان من أوائل المحرضين على نقل العاصمة وأن الذي كان يدفعه إلى ذلك هو ابن سبأ ويؤيد ذلك ما يأتي:

١ - إن العاصمة نقلت إلى الكوفة، والمعلوم أن مالك بن الحارث من رجال الكوفة المعدودين، وهو الذي قاد حملة الثوار من الكوفة إلى المدينة ضد

---

(١) الأخبار الطوال ص: ١٤٣.
(٢) سمط النجوم (٢/٤٣٥).

الخليفة ولهذا حرص على أن يكون المقر الجديد هو الكوفة حيث يوجد أعوانه ومؤيدوه.

٢ ـ إن مالك بن الحارث كان يحرض علياً ـ رضي الله عنه ـ على إجبار الصحابة على السير معه إلى العراق.

فإنه لما اعتذر سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد عن الخروج مع علي، دخل عليه مالك (الأشتر) فقال: يا أمير المؤمنين، إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار، فإنا من التابعين لهم بإحسان، وإن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه، فليسوا بأولى مما شركناهم فيه، وهذه بيعة عامة، الخارج عنها طاعن مستعتب، فحض هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان، فإن أبوا فأدبهم بالحبس[١].

٣ ـ إن عبد الله بن سبأ كان يرافق الثوار سراً حتى اطمأن على قتل الخليفة، وكان من مصلحته أن تخرج العاصمة عن المدينة حتى يستطيع أن يتمم مهمته دون أن ينكشف أمره، فإن بقاء الخليفة في المدينة وحوله كبار الصحابة يؤيدونه بسيوفهم ويسددونه بآرائهم، مما يحبط مسعى ابن سبأ في استمرار الفتنة، ويحول بينه وبين الوصول إلى غايته بتفريق جماعة المسلمين، وإشاعة الفوضى في الولايات الإسلامية.

٤ ـ إن ابن سبأ يستطيع أن يوجه سياسة الدولة كما يشاء من خلال أعوانه، وليس منهم أحد في المدينة، فإن بقيت الخلافة في المدينة عجز عن توجيه الأمور بثورة أخرى وليس من السهل إثارتها ضد علي، وهو الذي بلغ في تعظيمه حد الألوهية، ودعا الناس من قبل إلى الالتفاف حوله ومبايعته[٢].

٥ ـ إن الثوار لا يأمنون على أنفسهم، ولا يستطيعون تأمين مصالحهم

---

(١) الأخبار الطوال ص: ١٤٣.

(٢) الطبري (٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، ابن الأثير (٣/ ١٥٥)، الخطط (٣/ ٢٦٣).

والعاصمة في المدينة، لأن المسلمين في المدينة قد عرفوا قتلة عثمان، وعرفوا المحرضين عليه والمؤيدين لهم، وهم الآن يطالبون بدم عثمان، فكيف يقيمون بينهم آمنين؟ لا سبيل إلى ذلك إلا بالخروج من المدينة، ولو تركوا الخليفة في المدينة وذهبوا هم بعيداً عنها، فإنهم لا يأمنون أن يجد الخليفة في طلبهم تحت ضغط المسلمين، وحينئذٍ يثأر منهم لعثمان ـ رضي الله عنه ـ.

فلا بدّ إذن أن يكونوا محيطين بالخليفة دائماً، ولا يمكن ذلك إلا خارج المدينة.

والذي يظهر للباحث أن الثوار قد نجحوا في إقناع الخليفة بنقل مقر الخلافة إلى الكوفة بعد ما خرج فعلاً من المدينة لملاحقة الخارجيين عليه، وأنهم أقنعوه عن طريق وجود المال والرجال والقرب من العدو حتى لا يبغته بشيء لا يحبه، أو تفجعه عواقبه.

ونحن نرى أن الثوار قد التفوا حول الخليفة، لا لنصرته، ولا ليتغلب على عدوه ولكن ليحولوا بينه وبين تسليمهم أن يطلبهم، و ليشعروه أنهم قوة لا يستهان بها في جيشه.

وقد رأيناهم يتكتلون ويتضامنون وعندما طلب معاوية من علي تسليم قتلة عثمان برز عدد هائل من صفوف جيش أمير المؤمنين علي، وقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا، وقد اعتذر على نفسه لمعاوية بأنه لا يمكن تسليمهم وهم في هذه الكثرة الهائلة[1].

ولما حاول علي ـ رضي الله عنه ـ إبعاد من اشترك في قتل عثمان عن جيشه توجس الثوار خيفة وتداولوا أمرهم بينهم، فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهم وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأى الناس فينا واحد وإن يصطلحوا وعلي فعلى دمائنا، فهلموا فلنتواثب على علي فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى فيها منا بالسكون[2].

---

(١) ابن كثير (٧/٢٥٩).

(٢) الطبري (٤/٤٩٣).

إن الذي يعنينا في الأمر هو نقل الخلافة ومقرها من المدينة إلى الكوفة، وسواء كان ذلك عن قناعة خاصة بالخليفة أو أقنعه به غيره، وسواء كان ذلك الغير هم السبئيون أم قوم آخرون، فإن النقل قد تم ومضى.

وإن الذي لا شك فيه هو أن نقل العاصمة قد ترتب عليه حرمان المدينة من كل ما كانت تتمتع به من السلطة السياسية التي كانت توجه أمور المسلمين وتدبر شؤونهم.

لقد أصبحت الكوفة مقصد الناس، فيها خليفتهم، وتصدر منها الأوامر التي تهم عامتهم، ومنها تخرج الجيوش غازية، وترفع إليها أحوال الرعية حيث يقضي الخليفة فيها بما يراه، وإليها تقصد الوفود من أنحاء الدولة، واحتلت الكوفة مكانة المدينة السياسية.

ولولا أن الخليفة شغل بالفتن التي لم تهدأ، وانحصرت الحياة السياسية في أنحاء الدولة المترامية في الخلاف الذي نشب بين المسلمين، ولولا أن المسلمين أرهقتهم الحروب الطاحنة بين العراق والشام وكلاهما جزء من الدولة الإسلامية الموحدة، لولا ذلك لأصبح للكوفة مركز في التاريخ لا يقل أهمية عن مركز المدينة عاصمة الإسلام الأولى.

وفقدت المدينة بذلك سلطانها على الناس، حيث أصبح مقر الخليفة خالياً، فلم يقصدها أحد لقضاء مصلحة، ولم يلتفت إليها أحد لتدبير أمر، واتجه الأمراء برسائلهم إلى الكوفة العاصمة الجديدة وتلقوا منها ما يهمهم من أوامر الدولة.

ولولا مركزها الروحي في نفوس المسلمين حيث يضم مثوى رسول الله ـ ﷺ ـ ولولا أن مسجدها أحد المساجد التي تشد له الرجال، وفيها قبر الرسول الكريم، ولولا أن الرسول ـ ﷺ ـ كان يرغب المسلمين في العيش فيها، يحبب إليهم الموت على أرضها[1] لنسيت المدينة تماماً ولم يعد لها

---

(١) مسلم (٤/١١٨).

في نفوس المسلمين مكان تذكر به.

وعلى كل حال فإن نقل العاصمة الإسلامية من المدينة كان خطأ سياسياً ارتكب في ظروف غير طبيعية، ولو أن الظروف التي تولى فيها الخليفة الرابع أمور المسلمين كانت ظروفاً عادية، لما عدل أمير المؤمنين عن المدينة، ولاتخذها مقراً له كما فعل أسلافه الثلاثة، وقد كان الأولى ألا يحيد عنها مهما كانت الأسباب الداعية إلى ذلك.

لقد فتح الرسول ـ ﷺ ـ مكة، وهي البلدة التي ولد فيها، وتربى على أرضها ونزل عليه الوحي وهو بين أحضانها، وظن أهل المدينة أنه سيتخذها عاصمة وأنه سيتحول إليها ويترك المدينة، ولكنه ـ ﷺ ـ لم يفعل، وظلت المدينة تحتل من نفوس المسلمين المحل الأول.

إن النظم الإسلامية لا تخلو مهما تعددت أنواعها من القيم الروحية وإن ارتباط المسلمين بالمدينة كعاصمة ارتباط روحي قبل أن يكون ارتباطاً سياسياً لأن الرسول قد أضفى عليها قداسة لم تتوفر لغيرها، فالصلاة في مسجدها تعد بألف صلاة، والصبر على ولائها جزاؤه شفاعة رسول الله، والبركة في مدها وصاعها حاصلة بدعاء رسول الله، وهي كلها حرم آمن لا يقطع شجره، ولا يصاد صيده، ولا يختلي خلاه.

ومن هنا كان لها منزلة في النفوس ومحبة في القلوب كمدينة مقدسة مع كونها عاصمة تتطلع إليها أفئدة المسلمين، وذلك ما لا يمكن أن يوجد في بلدة سواها.

إن الأوضاع السياسية كثيراً ما تفرض على الأمم تغيير عواصمهم، وذلك حين يكون في العاصمة ما يدعو إلى هذا التغيير كوقوعها على البحار مثلاً أو في طرف صحراء يخشى غزوها منها، ولكن المدينة ليست كذلك.

وأحياناً تهدد العاصمة بالغزو فتضطر حكومتها لاتخاذ عاصمة أخرى، ولكن ذلك لم يحدث للمدينة.

إن الفراغ الذي أحدثه تغيير العاصمة في نفوس المسلمين لا يملؤه

شيء مهما كان موقع العاصمة الجديدة وثراؤها، ومهما كانت قوتها وعدد رجالها، لأنهم لن يجدوا فيها غذاء أرواحهم، وحياة قلوبهم.

ومن يدري لعل أمير المؤمنين كان قد تحول مؤقتاً حتى يطفىء الفتنة، ويقضي على المتردين. حتى إذا استقر له الأمر، وأذعنت له النفوس فاءَ إلى العاصمة الحبيبة ولكن الأمور لم تستقم له، والنية عجلت به في اليوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة أربعين من الهجرة، وذلك حين طعنه عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج بسيف مسموم فلقي الله، ولحق بصاحبيه شهيداً راضياً مرضياً.

وانتقلت بذلك الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، واجتمع عليه المسلمون، ولكنه لم يتخذ المدينة عاصمة، ولم يحاول العودة إليها، بل ظل في مقر إمارته بالشام واتخذ من دمشق عاصمة للمسلمين فبقيت المدينة مسلوبة السلطة، بعيدة عن التوجيه وإن بقي حبها عالقاً في قلوب المسلمين.

الوضع الاقتصادي:

كان من نتائج تلك الثورة النكدة نقل مقر الخلافة كما بينت، وكان من ثمرات هذا التحول التغيير في الأوضاع الاقتصادية المزدهرة التي كانت تنعم بها المدينة فإن من المعلوم أن العاصمة دائماً تكون أكثر البلاد ازدهاراً، وأعظمها رخاءً، لأن الناس يقصدونها من سائر الجهات فيبيعون ويشترون، ويجلبون إليها طمعاً في انتعاشها، ويحملون منها ما لا يوجد في بلادهم من الطرف والهدايا، فيكثر حينئذٍ التبادل التجاري، وتكثر الخيرات، وتزداد الموارد، وينشط تبعاً لذلك الوضع الاقتصادي.

وكانت المدينة كجميع العواصم تنعم بهذا الازدهار الاقتصادي، حيث كانت الأموال تجبي إليها من أنحاء الدولة وأطرافها المترامية، فالمغانم والخراج والجزية والعشور والضرائب التجارية التي كانت تحصل من التجار غير المسلمين، والزكاة التي هي أحد أركان الإسلام، كل هذه الموارد كانت تصب في العاصمة، لتخرج منها في شكل مخصصات لأفراد الدولة ومشاريع عامة.

وإذا علمنا أن الأموال التي دخلت المدينة من البحرين في أحد الأعوام بلغت مليون درهم وأن جزية أهل مصر بلغت مائتي ألف جنيه وسبعة ملايين جنيه، كما بلغت جزية أهل العراق ثمانية وعشرين ألفاً وخمسمائة جنيه مصري.

وإذا علمنا أن الخراج المتحصل من مصر والعراق بلغ ستمائة وستة وستين، وستمائة وستة عشر ألفاً وخمسة ملايين جنيه مصري، والمتحصل من الشام ثلاثمائة ألف جنيه مصري، علمنا أن مقدار ما تحصله الدولة من الجزية والخراج من مصر والعراق والشام بلغ (١٣ر٦٤٤ر٦٦٦) ستمائة وستة وستين وستمائة وأربعة وأربعين ألفاً وثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية[1] ولا شك أن هذا المبلغ الضخم في هذه الفترة من الزمن كفيل بأن يحدث من الرواج المالي والإنعاش الاقتصادي ما يجعل المدينة تزهو على غيرها من عواصم العالم.

ونحن لم نعلم في التاريخ القديم أو الحديث أن عاصمة ضمت خزائنها أموال الدولتين العظيمتين ـ الفرس والروم ـ سوى المدينة المنوّرة وليس معنى هذا إلا أن المدينة قد جمعت ترف الدولتين معاً، وعاشت رخاءهما جميعاً.

ولقد بلغت حالة الرخاء في المدينة أن إحدى أمهات المؤمنين لما أرسل إليها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حصتها ظنته أرسل إليها المال لتقسمه على المسلمين فقالت: رحم الله ابن الخطاب أما وجد في أمهات المؤمنين من تقوم بقسم هذا غيري، قالوا: هذا كله لك قالت: سبحان الله، واستترت منه بثوب، ثم قالت صبوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لبرزة بنت رافع: أدخلي يديك فاقبضي منه قبضة واذهبي بها إلى بني فلان، وبني فلان من ذوي رحمها، وأيتام لها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب، قالت برزة: فقلت غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا المال

---

(١) النظام المالي المقارن ص: ٦٥ ـ ٦٦.

حق، قالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسمائة وثمانية درهماً، ثم رفعت أم المؤمنين ـ زينب بنت جحش ـ يديها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء العمر بعد عامي هذا، قال: فماتت[1].

وكان لطلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ أرض بالمدينة يزرعها ويرويها بعشرين ناضحاً وهو أول من زرع القمح بالمدينة، وكذلك كان للزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ.

ولقد أرينا من قبل اتساع سوق المدينة، وأن طوله بلغ ألفا ومائتي متراً تقريباً وأن عرضه بلغ خمسمائة متراً تقريباً، وعرفنا أن النشاط التجاري والصناعي في السوق كان عظيماً.

واهتمت الدولة بالتوسيع على المسلمين وبخاصة في عهد عثمان ابن عفان ـ رضي الله عنه ـ يقول البلاذري: وأمر عمر فكتب له عماله أهل العوالي، فكان يجري عليهم القوت، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة[2].

من كل ما ذكرنا نعرف مدى الرخاء الذي عاشته المدينة وهي عاصمة الدولة الإسلامية ومدى ما تمتع به المسلمون في رحابها من العيش الرخى الهني.

ولقد ظلت المدينة ترفل في هذا الرخاء، وينعم أهلها بتلك البحبوحة حتى كانت الثورة المشؤومة، وانتقلت العاصمة إلى الكوفة ثم إلى دمشق، وتحولت مقاصد الناس ومصالحهم إلى العاصمة الجديدة فتحولت تبعاً لذلك الأوضاع الاقتصادية وأصبح الازدهار والنمو في العاصمة الجديدة.

إن الأموال التي كانت تجبى من هذه الرقعة الواسعة يتوجه بها العمال الآن إلى الكوفة أو دمشق، وبالتالي فإن الرخاء الذي كانت تنعم به المدينة

---

(١) البلاذري ص: (٤٤٠).
(٢) فتوح البلدان ص: ٤٣٨.

تحول عنها ليستقر في الكوفة أو دمشق، ومضت سنوات الفوضى والقلق واستتب الأمر لمعاوية فانفردت دمشق بكل ما كانت تتمتع به المدينة وسكانها.

وكما حرمت المدينة من السلطة السياسية حرمت من الازدهار الاقتصادي وأصبحت عالة على دمشق يأتيها رزقها من هناك بعد أن كانت تخرج منها الأرزاق إلى جهات الدولة المتعددة، وعاشت تابعة بعد أن كانت متبوعة.

وأغلب الظن أن المدينة قد تعرضت لمضايقات اقتصادية تبعاً للوضع السياسي الجديد.

لقد بدأت السياسة في تلك الفترة تشكل كل الأوضاع بحسب اتجاهها، فالموالون للدولة المؤيدون لها لهم من الحظوة ما ليس لغيرهم، فهم المقربون وهم المترفون، وهم أصحاب الرأي الجيد والقول المسموع، وبالعكس من ذلك تماماً المعارضون.

ومن المعلوم أن المدينة المنوّرة كانت من البلاد التي دانت بالطاعة وبايعت أمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب ـ ووقفت في جواره إلى آخر لحظات حياته، حتى بايع أهلها ابنه الحسن ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاته خليفة للمسلمين.

وأمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ وإن كان قد ترك المدينة، وتحول عنها إلى الكوفة إلا أن المدينة وأهلها لم يتحولوا عنه، وظل ولاؤهم له ولأولاده وحفدته من بعده، وبقدر ما كانت المدينة تصر على ولائها لعلي وأبنائه، بقدر ما كان حرمانها من عطف الحكام وانتباههم لمصالحها.

ولقد لعب المال دوراً خطيراً في تشكيل سياسة الدولة في تلك الحقبة، فكان وسيلة إغراء للمعارضين ليؤيدوا ويسيروا مع السائرين، وكان في نفس الوقت سلاحاً رهيباً يسلط على المصرِّين من المعارضين، يخضعهم بجبروته للدولة أو يعيشون في جحيم الحرمان والفاقة والمسغبة.

وإن المدينة قد وقفت بإخلاص إلى جوار الخليفة الذي بـايعته، واعتبرت التعرض له والوقوف في وجهه تحدياً لها، وإن أهل المدينة قد رفضوا أن يسلموا السلطان المال، وأن يجعلوا له عليهم سبيلاً، ورأوا أن من الوفاء للبيعة التي أعطوها، والإخلاص للخليفة الذي بايعوه أن يكونوا صرحاء مع من اعتدى عليه، واغتصب حقه، فلا يخلصون له، ولا يرضون عن تصرفاته.

وهم وإن كانوا قد بايعوا الخليفة الجديد، إلا أن تلك البيعة فيما يبدو كانت لجمع الشمل وعدم تفريق كلمة المسلمين.

ولقد تعرضت المدينة بسبب موقفها السياسي لضغط اقتصادي، فلم تكن مثل غيرها من البلاد المؤيدة للوضع الجديد مما اضطر كثيـر من الناس إلى التحول عنها إلى غيرها من الجهات التي تسبغ عليها الأموال.

روى مسلم في صحيحه عن يحنس مولى الزبير أنه كان جالساً عند عبد الله ابن عمر في الفتنة فأتته مولاة له تسلم عليه فقالت: إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان فقال لها عبد الله: اقعدي لكاع، فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يصبرعلى لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»[1].

وعلى هذا فإن الحديث يخبرنا عن شدة نزلت بالمدينة و أهلها حتى فكر الناس في تركها والبحث عن مكان يجدون فيه الرخاء والسعة والمقدرة على إعالة الأهل والعيال، ألا ترى إلى قول الجارية لعبد الله بن عمر: (أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان).

إن هذا التعبير مع بساطته يوحي بمقـدار ما كان ينعم به الناس من الرخاء في المدينة ثم اشتد عليهم الأمر شدة لم يستطيعوا تحملها حتى فكرت الجارية في الخروج، وجاءت تستأذن مولاها في ذلك فإذا بلغ الأمر

---

(١) مسلم بشرح النووي (٩/١٥١ ـ ١٥٢).

حدا يضيق به العبيد والإماء، فكيف بالسادة من القوم، وماذا يكون حالهم من هذه الشدة؟؟.

ولم يقف الحد عند جارية قد لا يتوفر لها ما تسد به حاجتها، بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى رجال ضاقوا بشدة العيش في المدينة و لم يتحملوا غلاء أسعارها، واعتبروا ذلك بلاءً يبيح لهم هجر المدينة والخروج منها مع علمهم بدعاء الرسول لها وترغيبهم في سكناها والصبر على لأوائها وشدتها.

عن أبي سعيد مولى المهري أنه أصابهم بالمدينة جهد وشدة، وأنه أتى أبا سعيد الخدري فقال له: إني كثير العيال، وقد أصابتنا شدة، فأردت أن أرسل عيالي إلى بعض الريف فقال أبو سعيد: لا تفعل، إلزم المدينة[1].

وفي رواية أن أبا سعيد مولى المهري جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة. وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره ألا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لا آمرك بذلك وإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً[2].

ونحن نلاحظ أن الروايتين عن شخص واحد، وأن الرواية الثانية ذكرت الوقت الذي حدثت فيه تلك الشدة وهو الوقت الذي وقعت فيه واقعة الحرة، وهذه كانت بعد أن نقلت العاصمة، واستقر الخليفة في دمشق، وبالتحديد كانت في سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد بن معاوية[3].

ومن الحديث نفهم أنه لولا أمر الرسول ـ ﷺ ـ لهم بالصبر على شدتها، وتحمل المصاعب التي تواجههم فيها ما أقام بها أحد من سكانها، وذلك لأن ما نزل بهم من الشدة والجهد أمر عظيم تضيق به النفوس، ولا

---

(١) مسلم بشرح النووي (٩/١٤٦ ـ ١٤٩).
(٢) تاريخ الخلفاء ص: ١٢٠٩.
(٣) تاريخ الخلفاء.

يتحمله إلا أولو العزم من الرجال.

على أننا نرى أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ لم يكن بخيلاً، ولا مقتراً، ولكنه كان سخياً كريماً وكان يعطي أعداءه كما كان يعطي أصدقاءه، وأنه كان يصطنع الناس بالمال، ويكسب ثناءهم بالعطاء ومن أمثلة ذلك ما روى سليمان المخزومي قال: أذن معاوية للناس إذناً عاماً، فلما احتفل المجلس قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه فسكتوا، ثم طلع عبد الله بن الزبير فقال: هذا مقول العرب، وعلامتها أبو خبيب قال: مهيم؟ قال أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه، قال: بثلاث مائة ألف، قال: وتساوي؟ قال: أنت بالخيار، وأنت وافٍ كافٍ، قال: هات فانشده الأفوه الأمدي قال:

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أرَ غير ختال يقال

قال: صدق هيه، قال:

ولم أرى في الخطوب أشد وقعا وأصعب من معاداة الرجال

قال: صدق هيه، قال:

وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما طعم أمر من السؤال

قال: صدق، ثم أمر له بثلاثمائة ألف[1].

إن الخليفة الذي يعطي على ثلاثة أبيات من الشعر ثلاثمائة ألف درهم جائزة لا يمكن أن يكون شحيحاً، ولا يمكن أن يكون حريصاً على المال، ولكنه كما قلت: كان يصطنع به الرجال، فلو لم يكن الرجل هو عبدالله ابن الزبير ما بذل معاوية هذا المبلغ في ثلاثة أبيات من الشعر، ومن يدري كم كانت الجائزة في ذهن الخليفة قبل أن يأتي ابن الزبير؟

هذه كانت سياسة معاوية في بذل المعروف، واقتناص الرجال، ولكنه ـ

---

(١) السيوطي ص: (٢٠٢ ـ ٢٠٣).

رضي الله عنه ـ كان لا يفعل ذلك إلا مع من يقدم عليه دمشق، أما أن يرسل الأموال إلى الناس وهم مقيمون على إخلاصهم لغيره، وهم في بلادهم لم يقبلوا عليه فذاك ما لم يفعله.

ولهذا ظلت المدينة في حرمانها تعاني من شدة العيش، وارتفاع الأسعار، وتحمل المسلمون المقيمون فيها ذلك الضنك أملاً في أن ينالوا شفاعة رسول الله ـ ﷺ ـ «لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً»[1].

---

(١) مختصر صحيح مسلم (١/٢٠٤).

الخاتمة

التاريخ هو الترجمة العلمية للأمم، وهو المجد الذي تعيش عليه الأجيال المتعاقبة يعتز به كل جيل لأنه حياة الآباء والأجداد، يرى فيه الأسوة التي يقتدي بها، والمثل الذي يحتذيه.

والتاريخ الإسلامي صفحة ناصعة من حياة الأمة التي رباها الإسلام، فكانت خير أمة أخرجت للناس، يرى فيها كل مسلم شباب أمته، ويتعلم من خلاله دروساً في الشجاعة والإقدام، والصبر والحلم، والورع والزهد، والفضائل والأخلاق، والقيم والمثل التي لا حياة للأمم بدونها.

ولهذا كان لزاماً على كل مسلم أن يعرف تاريخ أمته من مصادره المعتمدة الموثوقة، والحق الذي أقوله بمرارة وأسى هو أن التاريخ الإسلامي قد دس فيه كثير مما ليس منه، وأصبح الدارسون للتاريخ يعتمدون على مصادر اشتهر أصحابها بدقة الرواية، وتمحيص الأحداث، واطمأنوا إلى تلك المصادر، ومنحوها كل ثقتهم، وفاتهم أن هذه المصادر قد دس عليها كما دس على غيرها، وأن بعض رواياتها يحتاج إلى تدقيق وتحقيق، وأن المصدر مهما كان لا بدّ ألا يسلم الباحث لكل ما فيه من غير نظر وبحث.

وإننا لنرى المؤرخين الثقات المشهورين بالتحقيق والتدقيق قد تهاونوا في رواية التاريخ ولعل ذلك يرجع في اعتقادهم إلى أن التاريخ لا تنبني عليه أحكام شرعية، ولا يتوقف على العلم به حل أو حرمة، فتساهلوا، ورووا كل ما وصل إلى علمهم من غير تدقيق كما أننا من جانب أجر نرى التاريخ قد

كُتِبَ كتابة سرد الأحداث بالتحليل والتعليق أو يتناول الشخصيات بالدراسة والتحقيق أويربط بين الأحداث المنسوبة إلى شخص ما وصفات هذا الشخص وما اشتهر به ليستوثق من صحّة نسبة الأحداث إليه أم لا، فهذا شيء لم نره في كتب التاريخ المعتبرة كمصادر للبحث العلمي، اللهم إلا ما جاء في البداية والنهاية لابن كثير عندما تعرض لأحداث الفتنة، وتعليقه على ما نسب إلى الإمام علي رضي الله عنه ـ من الكلام الذي قاله في حق معاوية وأبيه أبي سفيان.

كذلك بعض تعليقات لابن الأثير في الكامل على الأحداث التي كانت قبل الإسلام وما عدا ذلك فإننا لا نجد في كتب التاريخ إلا الأحداث والروايات سبقت كما رويت ولهذا نجدها تكاد تكون صورة واحدة حتى في ألفاظها.

من أجل هذا كانت مهمة الباحث المحقق شاقة وعسيرة، وتحتاج فوق هذا إلى وقت وجهد يستطيع بهما أن يحقق مقصده، ويبلغ مراده.

ولقد احتوى هذا الموضوع الذي نحن بصدده فترتين من فترات التاريخ الكثيرة.

أما أولاهما:

فهي فترة ما قبل الإسلام، وهي فترة لم يكن التاريخ قد عرف فيها الجزيرة العربية إلا لماماً، ولهذا كانت روايات المؤرخين فيها أشبه ما تكون بالأساطير في كثير من الأحيان ولو استثنينا ما كان في جنوب الجزيرة من الحضارة التي أرغمت التاريخ على كتابة وقائع تلك الفترة في هذا الجزء من شبه الجزيرة، لوجدنا ما عداه قصصاً مشوباً بالأساطير.

ولو استثنينا ما أخبرت به ـ الكتب المقدسة، وما وجد منقوشاً على الأحجار القديمة لعزّ علينا أن نعرف شيئاً عن تاريخ هذه الحقبة على وجه التحقيق.

ولهذا كان على الباحث أن يعتمد عند كتابته عن هذه الفترة من التاريخ على ما يأتي:

١ ـ ما جاء في الكتب المقدسة وبخاصة منها ما لم يدخله التحريف والتبديل، وذلك لأنها مصادر موثوقة أنزلها الله على أنبيائه.
٢ ـ النقوش والآثار القديمة، وبخاصة ما يعثر عليه منها في أماكن الحضارة المبحوث عنها لأنها أدلة مادية تدعم البحث وتقويه.
٣ ـ تحكيم العقل فيما لم يرد في شيء مما سبق مع موافقة القواعد العلمية المتفق عليهما، وذلك لأن العقل الإنساني الضابط للقواعد العلمية هو الميزان الموثوق في كل أمر لا يوجد عليه دليل مقطوع به أو يغلب على الظن صحته.

ولما لم يتوفر لدى كثير من المؤرخين هذه المصادر، ولم تتح لهم فرصة الاعتماد عليها، وجدنا خلطاً كثيراً في روايات التاريخ عند المؤرخين، كما يذكرون أن نبي الله داود غزا صعل وفالج في يثرب، وأخذ منهم مائة ألف عذراء[1] فكم يكون في المدينة من السكان إذا صح هذا الخبر؟.

وكما ذكروا عند الكلام على خراب سد مأرب أن الجرذ الصغير كان يحمل حجراً ضخماً برجليه ويلقي به بعيداً وهذا الحجر لا يطيق حمله كذا وكذا من الرجال، حتى ذكر بعضهم خمسين رجلاً[1].

إن الجرذ وهو ضرب من الفئران ـ لا يقوى مهما عظم على حمل هذه الصخرة التي يعجز عن حملها خمسين رجلاً، فكيف يرفعها برجليه ويرمي بها بعيداً؟ ومن العجيب أنهم متفقون على أن هذا الجرذ كان أعمى.

وأمثال ذلك كثير في روايات تاريخ تلك الفترة، ولهذا وجب الوقوف من هذه الأخبار موقف الحذر المدقق، حتى لا تختلط الأساطير بحقائق التاريخ.

---

(١) أخبار مدينة الرسول ص: (١٢).

وأما ثانيتهما:

فهي فترة الدولة الإسلامية الأولى، وهي فترة صنعت التاريخ، وأحلت الجزيرة العربية محلاً لم يكن في حسبان أحد، حتى أن التاريخ كان يسعى جاهداً لتسجيل ما دار في تلك الحقبة على أرض الجزيرة التي لم يعبأ بها من قبل.

ومع وجود المصادر الوثيقة، ومع توفر مادة البحث، ومع وجود طبقة من المؤرخين الذين تفرغوا لتسجيل وقائع تلك الفترة، إلا أنه دخل عليها أشياء كثيرة، ودست بين الأحداث أوهام وخرافات تحتاج إلى تحقيق ليظهر زيفها من صحيحها وباطلها من حقها؛ وأخص بالذات فترة الفتنة التي ماجت موج البحر، وأتيحت فيها الفرصة للوضاعين والنساسين فباضوا وأفرخوا، وزيفوا على التاريخ ما ضج منه التاريخ.

إن التاريخ الإسلامي في حاجة ماسة لأن تحقق وقائعه وأحداثه، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق تحقيق شخصيات الرواة، وتعديلهم أو تجريحهم، وعلى ضوء النتائج الحاصلة من تلك الدراسة نستطيع أن نثبت من الروايات ما يصح سنده، ونرد منها ما لا يصح.

وبناءً على ما ذكر نستطيع أن نكتب التاريخ الإسلامي من جديد كتابة تعطى للدارس صورة ناصعة عن تلك الفترة، ونكون بذلك قد خدمنا تاريخنا، وأزلنا عنه شبهة المبطلين وتضليل المحرفين.

وفي ختام هذه الرسالة ادعو ملحاً أن ينهج المؤرخون هذا النهج، وأن ينشئوا أبناءهم الدارسين هذه النشأة حتى يوجد الجيل المتمرس على تلك الدراسة الدائب على تحقيقها في بحوثه وكتابته، وبذلك نعيد كتابة التاريخ على الوجه الذي يجب أن يكون عليه من غير كبير عناء.

إننا لو قسمنا العصور التاريخية بحسب قيام الدول وسقوطها على الدارسين، وطلبنا من كل مجموعة تحقيق أحداث الفترة التي تخصصوا في كتابتها على النحو الذي أشرت إليه، وأدت كل جماعة واجبها في تلك

الدراسة، لنتج عن ذلك تحقيق العصور المختلفة تحقيقاً رصيناً رصيناً، ولبلغنا ما ندعوا إليه بأقل جهد، وأبسط تكاليف وحققنا لأبنائنا دراسة ممتعة، وسلمناهم التاريخ حقائق ناصعة والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد السيد الوكيل

المدينة المنوّرة في ٢٥ رجب سنة ١٣٩٩هـ

١٩/ ٧/ ١٩٧٩ م

المَـــرَاجع

رتب هذا الثبت على أحرف الهجاء لأسماء المؤلفين
مع ذكر تاريخ الوفاة الهجري

أ ـ القرآن الكريم.

ب ـ كتب السنة الشريفة وشرحها.

جـ ـ كتب التفسير.

١ ـ **الشوكاني**: محمد بن علي المتوفي عام ١٢٥٠ هـ. فتح القدير ـ مطبعة مصطفى الحلبي مصر.

د ـ كتب الفقه وأصوله:

١ ـ **الشاطبي**: إبراهيم بن موسى اللخمي المتوفي عام ٧٩٠ هـ. الموافقات في أصول الأحكام ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

هـ ـ كتب اللغة:

١ ـ **مجيد الدين** الفيروز آبادي المتوفي عام ٨١٧ هـ. القاموس المحيط ـ مطبعة السعادة مصر.

و ـ السيرة والتاريخ:

١ ـ **ابن الأثير:**

أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني الجزري المتوفي عام ٦٣٠ هـ. الكامل في التاريخ ـ إدارة الطباعة المنيرية.

ط ـ الأسفرائيني:

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفي عام ٤٢٩ هـ. الفرق بين الفرق ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة.

٣ ـ **الأشعري:**

أبو الحسن علي بن إسماعيل المتوفي عام ٣٣٠ هـ. مقالات الإسلاميين - تحقيق محيي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية.

٤ - بدوي عبد اللطيف (دكتور)

النظام المالي المقارن في الإسلام - لجنة التعريف بالإسلام.

٥ - البلاذري:

أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر المتوفي عام ٢٧٩ هـ. فتوح البلدان - المكتبة التجارية مصر.

٦ - ابن الجوزي:

أبو الفرج عبد الرحمن أبي الحسن علي بن محمد المتوفي عام ٥٩٦ هـ. الوفا بأحوال المصطفى - مطبعة الكيلاني مصر.

٧ - ابن حجر:

أحمد بن علي بن محمد المتوفي عام ٨٥٢ هـ. الإصابة في تمييز الصحابة - المكتبة التجارية الكبرى مصر. ونسخة أخرى - دار إحياء التراث العربي بيروت.

٨ - حسن إبراهيم حسن (دكتور)

تاريخ الإسلام - مكتبة الآداب بالجماميزي مصر.

٩ - حسين إبراهيم بإسلامه

حياة سيد العرب - دار مصر للطباعة.

١٠ - ابن حزم:

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي المتوفي عام ٤٥٦ هـ. إحكام الأحكام.

١١ - أحمد أمين:

فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية.

١٢ - الدينوري:

أبو حنيفة أحمد بن داود المتوفي عام ٢٨٢ هـ. الأخبار الطوال - وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر.

١٣ - ابن سعد:

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري المتوفي عام ٢٣٠ هـ الطبقات الكبرى - دار التحرير القاهرة - دار صادر بيروت.

١٤ - السمهودي:

نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن بن شهاب الدين المتوفي عام ٩١١ هـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

١٥ ـ السهيلي:

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخشعمي المتوفي عام ٥٨١ هـ الروض الأنف ـ تحقيق عبد الرحمن الوكيل.

١٦ ـ السيوطي:

جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفي عام ٩١١ هـ. تاريخ الخلفاء ـ مطبعة السعادة تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

١٧ ـ الشهرستاني:

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر المتوفي عام ٤٧٩ هـ. الملل والنحل ـ مطبعة مصطفى الحلبي تحقيق محمد سيد كيلاني.

١٨ ـ طه حسين (دكتور)

الفتنة الكبرى (عثمان) ـ مطبعة دار المعارف مصر.

١٩ ـ الطبري:

أبو جعفر محمد بن جرير المتوفي عام ٣١٠ هـ. تاريخ الأمم والملوك ـ مطبعة دار المعارف مصر، التجارية الكبرى مصر.

٢٠ ـ ابن عبد البر:

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المتوفي عام ٤٦٣ هـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب ـ المكتبة التجارية (هامش الإصابة) جامع بيان العلم وفضله ـ المكتبة العلمية بالمدينة المنوّرة.

٢١ ـ ابن عبد الحكم:

عبد الرحمن بن عبد الله المتوفي عام ٢٥٧ هـ. فتوح مصر والمغرب ـ لجنة البيان العربي تحقيق عبد المنعم عامر.

٢٢ ـ عبد الله بن حمد الحامد:

شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء ـ مطبوعات كلية اللغة العربية الرياض.

٢٣ ـ عبد الملك بن حسين العصامي المتوفي عام ١١١ هـ.

سمط النجوم العوالي ـ المطبعة السلفية القاهرة.

٢٤ ـ ابن عساكر:

أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المتوفي عام ٥٧١ هـ. تهذيب تاريخ بن عساكر ـ مطبعة روضة الشام دمشق.

٢٥ ـ العسكري:

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل المتوفي عام ٣٩٥ هـ. الأوائل ـ مطبعة دار أمل طنجة تحقيق محمد السيد الوكيل.

٢٦ ـ الفاسي:

السيد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الإدريس. الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية ـ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٢٧ ـ ابن كثير:

أبو الفداء إسماعيل بن عمر المتوفي عام ٧٧٤ هـ. البداية والنهاية في التاريخ ـ مطبعة السعادة مصر، مكتبة المعارف بيروت.

٢٨ ـ محمد حسين هيكل (دكتور)

الفاروق عمر ـ مكتبة نهضة مصر

الصديق أبو بكر ـ مكتبة نهضة مصر.

٢٩ ـ محمد السيد الوكيل (دكتور).

القيادة والجندية في الإسلام ـ دار الأنصار مصر.

٣٠ ـ محمد الصادق عرجون (دكتور)

الخليفة المفتري عليه ـ بدون.

٣١ ـ محمد قطب:

منهج التربية الإسلامية ـ دار القلم القاهرة.

٣١ ـ محمد بن محمود النجار:

أخبار مدينة الرسول المشهور بالدرة الثمينة ـ تحقيق صالح جمال.

٣٢ ـ المسعودي:

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المتوفي عام ٣٤٦ هـ. مروج الذهب ـ دار رجاء للطباعة والنشر.

٣٣ ـ المقريزي:

أحمد بن علي المتوفي عام ١٤٤٢ هـ. المواعظ والاعتبار (الخطط) دار التحرير للطبع والنشر.

٣٤ ـ ابن تغري بردى:

يوسف بن سيف الدين المتوفي عام ٨٧٤ هـ. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية

٣٥ ـ مناع خليل القطان.

نظام الأسرة في الإسلام.

٣٦ ـ ابن هشام:

أبو محمد عبد الملك المعافري البصري المتوفي عام ٢١٣ هـ. السيرة النبوية ـ مكتبة الكليات الأزهرية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

٣٧ ـ أبو يوسف:

يعقوب بن إبراهيم المتوفي عام ١٨٢ هـ.

٣٨ ـ السيوطي:

جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفي ٩١١ هـ. الإتقان في علوم القرآن ـ مطبعة مصطفى الحلبي مصر.

٣٩ ـ ابن العربي:

محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المتوفي عام ٥٤٣ هـ. العواصم من القواصم ـ المطبعة السلفية مصر.

٤٠ ـ ابن القيم:

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المتوفي عام ٥٧١ هـ. زاد المعاد ـ مطبعة السنة المحمدية مصر.

فهرس

تقديم ٥

الفصل الأول

الحركة العلمية في عصر الرسول ﷺ ٩

الإسلام والعلم ١١
أول مدرسة في الإسلام ١٤
سن بدء التعليم ١٦
نظام التعليم ١٩
١ ـ العطلة الأسبوعية ١٩
٢ ـ منهج مرحلي ٢٠
٣ ـ طرق التدريس ٢٢
مكانة المعلم ٢٩
آداب الطلاب ٣٠
تعليم النساء ٣٤
مناهج التعليم ٣٧

الفصل الثاني

الحركة العلمية في عصر الخلفاء الراشدين ٤١

عمر يفتتح مكاتب التعليم ويقرر العطلة ٤٧
مناهج التعليم: ٤٩
أولاً: العلوم الدينية ٤٩

ثانياً: علوم العربية ٥٧
ثالثاً: العلوم الإنسانية ٦٨
نماذج من وسائل التربية الإسلامية: ٨٠
١ ـ التربية بالقدوة ٨٠
٢ ـ التربية بالموعظة ٨٠
٣ ـ التربية بالقصة ٨١
٤ ـ التربية بالعادة ٨٢
٥ ـ التربية بالأحداث ٨٤
٦ ـ التربية بالعقوبة ٨٧
رابعاً: علوم الطب والتمريض ٨٨
خامساً: العلوم العسكرية ٩٢
سادساً: علوم الأنساب والحساب والفرائض ٩٣

الفصل الثالث

الفتنة تطل بقرنها ٩٧

بين عمر وعثمان (رضي الله عنهما) ٩٩
مجتمع المدينة ١٠٥
أسباب الفتنة ١٠٧
١ ـ عبد الله بن سبأ ١١٤
رأي الدكتور طه حسين في ابن سبأ ومناقشته ١١٥
٢ ـ الغافقي بن حرب العكي ١٢٧
٣ ـ كنانة بن بشر التجيبي ١٢٧
٤ ـ مالك بن الحارث ١٢٨
٥ ـ حكيم بن جبلةالعبدي ١٣١
تحليل ومناقشة ١٣٥
نهاية مؤلمة ١٤٧

الفصل الرابع
أثر الثورة في المدينة ١٥٣

التحويل السياسي ١٥٦
الوضع الاقتصادي ١٦٤
الخاتمة ١٧٣
ثبت المصادر والمراجع ١٧٩
الفهـــرس ١٨٥

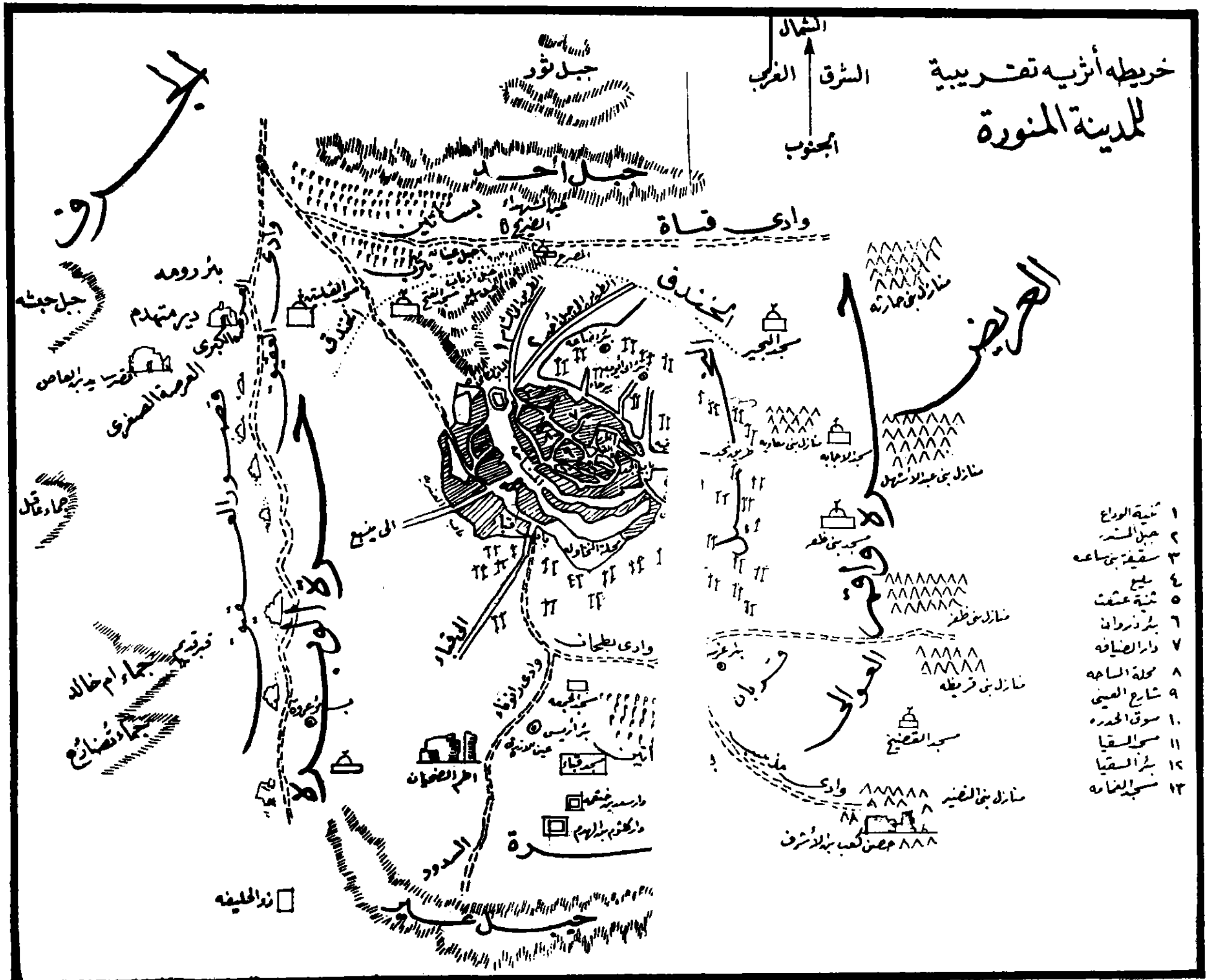
خريطه أثريه تقريبية للمدينة المنورة
الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب
جبل ثور
جبل أحد
وادي قناة
الخندق
العريض
حرة واقم
العوالي
قربان
وادي مذينب
حرة الوبرة
قصور العقيق
وادي العقيق
الجرف
بئر رومه
جبل جثمه
دير متهدم
العرصة الكبرى
العرصة الصغرى
حمراء عاقل
حمراء أم خالد
حمراء نضارع
ذو الحليفه
جبل عير
السدود
حرة
وادي بطحان
وادي رانوناء
أطم الضحيان
مسجد قباء
بئر أريس
المصلى
الى ينبع
مسجد الفضيخ
منازل بني قريظة
منازل بني النضير
حصن كعب بن الأشرف
منازل بني ظفر
مسجد بني ظفر
منازل بني عبد الأشهل
مسجد الإجابه
منازل بني حارثة
مسجد البحير
١ ثنية الوداع
٢ جبل المشرف
٣ سقيفة بني ساعده
٤ سليع
٥ ثنية عثمت
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافه
٨ محلة الساحه
٩ شارع العيني
١٠ سوق الحداده
١١ سوق السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامه

من منشـــورات
دار المجتمع للنشر والتوزيع

* **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
لشيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تمية.
تحقيق: د. محمد السيد الجليند.

* **شرح متن الأربعين النووية.**
للإمام يحيى بن شرف الدين النووي.
تحقيق العلامة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

* **حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان.**
(الطبعة الثانية).
للدكتور عبد الله ناصح علون.

* **تكبير الختم بين القرّاء والمحدثين.**
للأستاذ إبراهيم الأخضر القيم.

* **أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام.**
(الطبعة الثانية).
للدكتور محمد العروسي.

* **آيات الرحمن في جهاد الأفغان.**
(الطبعة السادسة).
للدكتور عبد الله عزام.

* **أفيقوا أيها المسلمين!!! قبل أن تدفعوا الجزية.**
(الطبعة الثالثة).
للدكتور عبد الودود شلبي.

* **ظل الربوة (تربية الأستاذ لتلميذه).**
للدكتور عبد الله بن أحمد قادري.

* **نظرات في معتقدات ابن عربي.**
دكتور كمال محمد عيسى.

* **وسائل الإعلام المطبوعة في دعوة الاخوان المسلمين.**
(رسالة ماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض.
للأستاذ محمد فتحي شعير.

* **دليل الزكاة.**
للأستاذ عادل رشاد غنيم.

* **إلى كل أب غيور.** (الطبعة الثانية).
د. عبد الله علون.

* **سبب الجريمة**
للدكتور عبد الله بن أحمد قادري.

* **(مع عقيدة السلف).**
العقيدة الواسطية.
للشيخ مصطفى العالم.

* **دور الأم في تربية الطفل السليم.**
(رسالة ماجستير من جامعة أم القرى).
للأستاذة خيرية حسين طه صابر.

* * * *

للدكتور محمد السيد الوكيل.

* **جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين.**
دراسة تحليلية لأحداث تلك الفترة.

* **موسوعة المدينة المنورة التاريخية.**

(رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية).

تصدر تباعاً كل جزء في كتاب:

الجزء الأول: يثرب قبل الإسلام.

الجزء الثاني: المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى.

الجزء الثالث: الحركة العلمية في المدينة المنورة.

الجزء الرابع: المسجد النبوي عبر التاريخ.

الجزء الخامس: معالم المدينة المنورة.

* * * *

من منشورات

دار المجتمع للنشر والتوزيع

تحت الطبع (وتصدر قريباً) إن شاء الله

* **معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم.**

(جزءان) مجلدان.

(رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

للدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي.

* * * *

من مؤلفات للدكتور محمد السيد الوكيل.

* **كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر.**

* **أسس الدعوة وآداب الدعاة (الطبعة الثانية).**

* * * *

* **حاضر العالم الإسلامي (الطبعة الثانية)**

للدكتور علي جريشه.

* **نساء في عصر الرسول ﷺ (خمسون صحابية).**

للأستاذة حليمة السعدية شيخ شرطي.